التقدم على الطريق المسدود
رؤية قومية للمشكلة الفلسطينية

الدكتور عصمت سيف الدولة

مشكلة فلسطين

منذ أكثر من نصف قرن تقوم فى فلسطين محاولة لانتزاع الارض من البشر بدأت اختلاسا خفيا ثم تحولت الى اغتصاب بالقوة . انها ليست احتلالا لفلسطين أرضا وبشرا تسخر به القوى المحتلة كلا من الارض والبشر لخدمة التقدم فى بلادها البعيدة كما كانت تفعل انجلترا قبل سنة 1948 ، ولكنها محاولة بدأت قبل الاحتلال الانجليزى واستمرت فى ظله وماتزال باقية بعده . فيها تحاول الحركة الصهيونية الاستيلاء على الارض (خالية) من الشعب العربى وتوطين بشر آخرين فيه بدلا من المطرودين . انها محاولة قريبة الشبه بما فعل المهاجرون الاوربيون القدامى فى امريكا واستراليا حيث أبادوا البشر ليقيموا على الارض الخالية مجتمعاتهم الجديدة .

وفى سنة 1948 استطاعت الحركة الصهيونية أن تقيم على أرض فلسطين دولة باسم" اسرائيل" اعترفت بها أغلبية دول العالم وقبلت عضوا فى هيئة الامم المتحدة ورفضت الدول العربية الاعتراف بها واشتبكت معها فى ثلاث جولات عسكرية خلال عشرين عاما وماتزال اسرائيل باقية . وقد عاصرت تلك المشكلة ثلاثة اجيال عربية . تتابعت عليها النظم السياسية والاجتماعية المختلفة ، وتغيرت من حولها الظروف الدولية . وفى كل جيل . وتحت كل نظام . ومع كل ظرف دولى ، طرحت للمشكلة عشرات التفسيرات ، وقدمت لها عشرات الحلول ، وبذلت فى حلها عشرات المحاولات ، وكتبت عنها مئات الكتب ... فلم تزد المشكلة الا حدة وان كادت كل تلك الاحداث و " الاجتهادات" أن تخفى الاجابة الصحيحة على اول الاسئلة التى نطرحها :ماهى حقيقة المشكلة ؟..وجاءت هزيمة يونيو (حزيران) 1967 فازداد الامر تعقيدا .

فمنذ عام 1967 جذب الصراع ضد الصهيونية الى ساحته افرادا وجماعات ومنظمات وشعوبا ودولا من اطراف الارض جميعا ، بحيث يمكن القول ــ بدون أية مبالغة ــ ان كل القوى النشيطة فى العالم أصبحت اطرافا ذات نشاط فى الصراع الذى تثيره مشكلة فلسطين . وحمل كل طرف" قضيته" معه . بعدا جديدا ومضمونا مضافا ، الى أبعاد ومضامين المشكلة االاصلية . وهكذا اصبح الصراع الذى تثيره مشكلة فلسطين دائرا بين أطراف عدة على مضامين متعددة من اجل غايات متباينة ، تستعمل فيه كل انواع الاسلحة من اول الكلمات والنظريات الى آخر الصواريخ والطائرات . ولم يعد أحد يذكر حتى ذرائع القتال فى يونيو (حزيران) 1967 . فقد عرت الايام ماكان مستورا وكشفت نوايا كل الاطراف فبانت حتى لاقصر الناس نظرا الاعماق الحقيقية للصراع

فلا هو صراع حول أمن اسرائيل" المستضعفة " فى مواجهة البغى العربى المتفوق عــدة وعــداء. ولاهو صراع حول الملاحة فى خليج العقبة ، ولاهو صراع حول أسلوب الحياة فى الارض العربية . بل هو صراع يدور ــ بلا مواربة ــ حول الوجود والمصير . الوجود العربى ومصيره . والوجود الصهيونى ومصيره . والوجود الاستعمارى ومصيره فى الوطن العربى وربما فى العالم . وهكــذا يعرف كل الشركاء والحلفاء فى الصراع الذى تثيره مشكلة فلسطين انه ذو أثر حاسم فــى مصــير كثير من العقائد (الايدلوجيات) والقوى والمصالح والنظم ، العربية والصهيونية وربما العالميــة . وانه عندما تحل مشكلة فلسطين لن يكون المستقبل العربى مجرد امتداد لما ســبق بــل ســيكون مستقبلا مختلفا نوعيا فى قواه وفى نظمه وفى غاياته . ومن هنا اصبح " المستقبل" العربى ذاته ، مستقبل الامة العربية كلها موضوعا يدور من اجله الصراع بين القوى المشتبكة فى الصراع حول مستقبل فلسطين . ويعد له كل شريك فى الصراع ، وكل حليف لاحدى قواه " الصيغة " التى تتفــق مع مصالحه . ويدفع بالصراع ذاته الى الاتجاهات االتى يعتقد انها مؤدية الى مايريد فــى الــوطن العربى . وليست " النظريات" التى كثرت أعلامها فى سماء الوطن العربى منــذ ســنة 1967 الا الصيغ النظرية لا لمستقبل فلسطين بل لمستقبل الامة العربية . وهى تطرح على الجماهير العربيــة لابقصد تثقيفها أوتعريفها بالحقيقة كما لابد يزعم دعاتها ولكن للاتجاه بالجماهير العربية من خلال الصراع القائم الى غايات نهائية معينة . فى غمار هذا كله يصبح من المهم لنا أن نعرف حقيقــة مشكلة فلسطين ، وان نظل واعين حقيقتها ، والا نسمح لاحد بأن يضللنا عن هذه الحقيقة ، فأننــا لن نعرف قط الحل الصحيح لاية مشكلة اذا جهلنا حقيقتها وعندما لانعرف الحل الصحيح لن نحــل المشكلة قط . ولقد عرفنا من قبل أن " كل مشكلة اجتماعية لها حقيقة واحدة مهما اختلــف فهــم الناس لها وبصرف النظر عن مدى ادراك صاحبها لحقيقتها . وان اية مشكلة اجتماعية ليس لهــا الا حل صحيح واحد فى واقع اجتماعى معين فى وقت معين . قد يكون لها أكثر من حل خــاطئ ، قاصراو متجاوز أو متناقض ، يحاوله صاحبه فيفشل فى حلها ، ولكن حلها الصحيح لايمكن الا أن يكون واحدا بحكم أن الواقع الاجتماعىواحد (فقرة 18) وعندما طبقنا هذا على المجتمع القومى (الامة) انتهينا الى ان" المشكلات الاجتماعية فى الامة حلولا موضوعية يحددها الوجود القومى ذاته بما يتفق مع التقدم القومى . والصراع الاجتماعى حول المشكلات الاجتماعيــة لايعنــى أن تلــك الحلول غير معروفة أوغير قابلة للمعرفة ، بل يعنى تماما ان الصراع يدور بين قوى تزعم كل منها انها تستهدف الحل الموضوعى الصحيح . وقد يكونون كلهم خاطئين ، ولكن الذى لايمكن أن يكون أبدا أن يكونوا كلهم على حق فيما يزعمون .(فقرة 29).

فماهى حقيقة مشكلة فلسطين وماهو حلها الصحيح ؟

لنبدأ بالوقائع التاريخيه وهى بسيطة : منذ الفتح الاسلامى والشعب العربى هو الذى يقيم ويعيش على أرض فلسطين. ومن اجلها دارت أقسى معارك الدفاع عن الارض المشتركة ضد الغزو الصليبى واشترك كل الشعب االعربى بأمواله وأبنائه فى تحرير فلسطين واستردادها من الصليبيين . ومنذ ان انحسرت نهائيا موجات الغزو الصليبى لم يغادر الشعب العربى أرض فلسطين الى أن طرد بعضه من بعضها سنة 1948 . هذا تاريخ غير منكور ولم ينكر أحد حتى من الصهاينة ان الشعب العربى هو الذى كان يقيم ويعيش على أرض فلسطين منذ االفتح الاسلامى حتى سنة 1948 . وهكذا ندرك عدم جدوى كل ماكتب فى محاولة اثبات مالم ينكره احد. انما يبدأ الخلاف حول تفسير الوقائع التاريخية غير المنكورة . وسنعرض فيما يلى الموقف العربى القومى ثم الموقف الصهيونى قبل أن نعرض الحل القومى للمشكلة .

الموقف القومى:

الموقف القومى من مشكلة فلسطين بسيط وواضح: فعندما ننظر الى المجتمعات خلال تطورها الجدلى وحركتها التى لاتتوقف من الماضى الى المستقبل ، نفهم ان فلسطين ، أرضا وشعبا، قددخلت طورا جديدا بالفتح الاسلامى . لم تعد منذ ذلك الحين موقعا للصراع االقبلى بين الكنعاييين والاسرائيليين والرومان بل استقر الامر فيها لتتخطى مرحلة البداوة القبلية حيث لاتخص االارض شعبا بعينه لتكون جزءا مؤثرا ومتأثرا ، متحركا ، ومتغيرا ، ومتطورا مع بقية الجماعات والشعوب االتى وفر لها الفتح الاسلامى أوسع فرص التفاعل التاريخى لتكون معا امة عربية . واذا كانت العلاقات العرقية (السامية) بين المقيمين فى فلسطين والمقيمين فى بقية انحاء الوطن العربى قد سهلت عملية التفاعل تلك فان المهم هو مـاأدى اليه التفاعل من تطور تقدمى انصهرت فيه الجماعات والشعوب السابقة على التكوين القومى العربى وأصبحت به امة واحدة (من هنا فانا لانطرح مشكلة فلسطين ولانفهمها ولانحتج فيها استنادا الى اية وقائع تاريخية سابقة على التكوين القومى) . ولانقبل من أحد أن يطرحها أو يفهمها أو يحتج فيها بما يسبق دخول فلسطين أرضا وشعبا عنصرا من عناصر التكوين التاريخى للامة العربية . ذلك لاننا كقوميين ،والقومية تقدمية ،لانحتج ولانقبل الاحتجاج على ثمرات تطور التاريخ بتاريخ البداوة الاولى . فلسطين اذن جزء من الامة العربية . وبالتالى فان محاولة طرد الشعب العربى واغتصاب الارض العربية لتوطين بشر مستوردين هو اعتداء على االوجود القومى للامة العربية لابد من أن يرد هو انتقاص من المجتمع العربى ولابد من أن يستكمل . هو فسخ لعلاقة تاريخية بين الشعب والارض لابد من أن يزول ليعود الشعب الى الارض وتعود الارض الى الشعب فتبقى الامة العربية" كما هى" . لاأكثر . كل هذا بصرف النظر عن جنس او ديانة او لون او مبادئ او نوايا االمعتدين . ان هذا مهم . فقد عرفنا أن الوجود القومى مجرد وجود خاص . فهو اضافة الى. وليس انتقاصا من وجود الجماعات

الانسانية الاخرى . وهكذا تكون القومية علاقة قبول .واحترام للوجود الخاص لكل مجتمع من المجتمعات الانسانية" فقرة 25" . وهذا يعنى ، طبقا لنظريتنا القومية ، ان حق الامة العربية فى الوجود الكامل لايتوقف على أحد. وبالتالى فان حق الشعب العربى فى استكمال وجود امته باسترداد فلسطين لايتوقف على ماإذا كان المعتدون يهودا او غير يهود ، رأسماليين أو من الذين لايملكون شيئا يخسرونه ، كما لايتوقف على أى وجه وفى أى ظرف . على موقف الدول من هذا الحق سواء كانت دولا كبرى أو دولا صغرى ، منفردة أو مجتمعة فى منظمة هيئة الامم المتحدة . أن كل هذا الذى يتصل بالمعتدين وحلفائهم والموقف الدولى من المشكلة قد يؤثر بشكل أو بآخر على اسلوب حلها ، أما حقيقتها القومية كما هى محددة بالوجود القومى العربى فلا تتأثر ولاتتغير بمواقف القوى الاخرى معتدية كانت أوحليفة أو صديقة . حتى لو كانت حليفة أو صديقة للشعب العربى نفسه .

تترتب على هذا عدة نتائج هامة يتميز بها الموقف القومى من مشكلة فلسطين :

اولاها : ان الصراع الذى تثيره مشكلة فلسطين ليس قائما بين الشعب العربى وبين" اليهود" لانهم يهود . هذا خطأ جسيم فى فهم المشكلة . ان العروبة قومية واليهودية دين . فلكل منهما دلالة مختلفة على مضامين مختلفة . القومية العربية علاقة انتماء الى مجتمع قومى (امة) والدين اليهودى علاقة ايمان بمقولات ميتافيزيقية . وكما يكون العربى يهوديا ويبقى عربيا يكون اليهودى منتميا الى أى واحد من المجتمعات التى تملأ الارض بدون أن يكون ثمة تناقض بين انتمائه الاجتماعى وانتمائه الدينى. ليس ثمة شئ أبعد عن حقيقة مشكلة فلسطين وأكثر تشويها لها من القول بأنها مشكلة صراع دينى يحلها قبول التعايش بين الاديان على أرض فلسطين . فيوم أن اغتصب الصليبيون المسيحيون أرض فلسطين قاتل العرب ، مسلمين ومسيحيين ، الى أن استردوا الارض االمغتصبة ، ومن قبل أن يبدأ العدوان الصهيونى على فلسطين كان العرب من كل دين يعيشون فى سلام على أرض فلسطين . ان مشكلة فلسطين مشكلة أرض مغتصبة وليست مشكلة تبشير بأحد الاديان . مشكلة قومية وليست مشكلة دينية واذا كان الصهاينة المعتدون يخلطون القومية بالدين ويبررون العدوان بنصوص من" االتوراة" فذلك مايقوله المعتدون أنفسهم لخدمة أغراضهم أو لتبرير عدوانهم .. وعندما ننزلق نحن الى هذا الخطأ نكون قد قبلنا حجة المعتدين وشوهنا حقيقة مشكلتنا فلا نعرف حلها الصحيح ولانستطيع أن نحلها وقد نقع فى الخطأ حتى بعيدا عن التصدى لمشكلة فلسطين . فعندما ينسى بعض" المتفقهين" الامة العربية التى ينتمون اليها ، والواقع القومى الذى تثور فيه المشكلة ، ويقدمون الدين بديلا عن القومية ، او عندما ينفعل" المتعصبون" فيصبون جام غضبهم على ابناء امتهم العربية من اليهود ، لايفعلون شيئا بتلك الاخطاء الغبية االمضللة سوى خذلان امتهم المعتدى عليها والانتصار للصهيونية المعتدية . اذ عندما يصبح الدين بديلا عن القومية ثم تطرح مشكلة فلسطين ينتهى بهم

الامر الى اقتسام الوطن العربى فيما بين الاديان الثلاثة على الاقل .وأيا ماكانت النسبة بين الاقسام فسيكون على كل مسلم أو مسيحى أن يخرج من أرض اليهود فى فلسطين . أى يكون علـــيهم أن يقبلوا الحل الصهيونى الذى يظنون انهم يحاربونه بالتعصب الدينى . فهل يقبلون مـــاتنتهى اليـــه منطلقاتهم أم هى أخطاء غبية ؟ ..

النتيجة الثانية : هى أن الصر اع الذى تثيره مشكلة فلسطين ليس قائما حول النظم الاجتماعية فى الارض االعربية بين الرجعيين والتقدميين . انما هو قائم حول الارض المغتصبة ولمن تكون . فمن حيث الوقائع التاريخية كان كثيرون من عتاة الصهاينة ورواد الغزو الصهيونى لفلسطين يزعمون أنهم من"الاشتراكيين" بينما االمدافعون عن الارض العربية" اقطاعيين": أو رأســماليين . وأدى ذلك الى وقوع أكثر الناس ادعاء للفهم" االعلمى" للمشكلات فى خطأ فهم حقيقة مشكلة فلســطين فاعترف الاتحاد السوفيتى باسرائيل فور اعــلان قيامهــا وانحــاز الشــيوعيون العــرب الـــى الصهيونية ضد امتهم العربية . ولم يلبث التاريخ طويلا حتى كشف ذلك االخطأ" العلمى" جدا . اذ فى مرحلة لاحقة اصبح الصهاينة الذين كانوا يومــا مــن اعضــاء" البونــد الماركســى" خلفــاء أوفياء للامبريالية الامريكية بينما اصبح المدافعون عن الارض العربية من التقــدميين والاشــترا كيين . وفى االحالتين تغيرت مواقف القــوى مــن الــنظم الاجتماعيــة ولكــن المشــكلة ظلــت مستمرة والصراع قائما . وقد صحح الاتحاد السوفيتى ــ بقدرــ خطأه لاول . وصحح كثيــر مــن الماركسيين العرب مواقفهم تصحيحا كاملا .ولكن العبرة ليست بتصحيح المواقف انمــا العبــرة بصحة فهم حقيقة مشكلة فلسطين . ومشكلة فلسطين مشكلة أثارها اغتصاب الارض العربيـــة ، والارض هى مصدر الامكانيات المادية للتقدم الاجتماعى ، فاغتصابها من الشعب العربـــى معـــوق لتقدمه فهو عدوان رجعى بصرف النظر عما يفعله بها وفيها المغتصبون . واذا كان االصـــهاينة لا يكفون عن عقد المقارنات بين اسلوب الانتاج الجماعى فى الارض المغتصبة وبين اسلوب الا نتاج االفردى فى الوطن العربى فهم يحاولون اخفاء المشكلة الاصلية تحت ستار الادعــاءات التقدميـــة ليبرروا بقاءهم فى االارض المغتصبة. وهو تضليل لم يضلل مثله أحد من قبــل يــوم أن نشـــب الصراع المسلح بين الصين والاتحاد االسوفيتى حول بضعة أميال مربعة من الارض علـــى حـــدود البلدين . لم يكن هناك شك فى أن الاشتراكية هى نظام الحياة الذى ينتظر تلك الارض ســـواءآلت الى الصين او الى الاتحاد السوفيتى . لم يكن أحد من الطرفين يشك فى هذا ولم يثره أحـــد مـــن الطرفين . انما كان الصراع المسلح الذى وصل الى حد القتال الفعلى بين االاشتراكيين من الجانبين دائرا حول لمن تكون الارض . ان كان هذا واضحا يتضح لنا غباء الاخطاء المضللة االتى تطـــرح مشكلة فلسطين كما لو كانت صراعا حول ملكية أدوات الانتاج فى الارض العربية . وهى اخء غبية ومضللة حتى لو كانت تستهدف ــ غرورا ــ اضعاف الجبهة الداخلية فى اسرائيل أو حتى شقها . لأننا انما نضغف القوى المعادية لنمزقها انتصارا لحقنا ولكن لاندفع من حقنــا ثمــن اضــعافها

وتمزيقها . ولايجدينا شيئا أن يتمزق المجتمع الصهيونى فى اسرائيل الا من حيث انه قد يسهل حل مشكلة الارض المغتصبة منا . ولكن عندما يصبح هذا التمزيق غاية فى ذاته بديلة عن الغاية الاصلية فلن يزيد عن أن يكون انتقالا لارض فلسطين من فريق صهيونى نقول أنه رجعى الى فريق صهيونى نقول أنه تقدمى. وتكون المسألة كلها عبثا . وعندما ينسى بعض المتشددقين بالتقدمية والاشتراكية والكادحين والبروليتاريا ... الى آخر هذه الكلمات الكبيرة ان كل أفلاح فى اسرائيل يزرع أرض فلاح عربى . وأن كل عامل فى اسرائيل يحتل مكان عامل عربى ، وان كل اسرة فى اسرائيل تعيش فى منزل اسرة عربية ، عندما ينسون ان كل خطوة الى الامام فى اسرائيل قد انتزعت الاقدام االعربية من فوق طريق التقدم الاجتماعى ، ثم يفتشون عن حلفاء من التقدميين الاشتراكيين الكادحين من بين االغاصبين بدعوى ان المشكلة مشكلة صراع حول ملكية ادوات الانتاج يدور بين " الطبقات" وليس صراعا حول ملكية مصادر الانتاج يدور بين المجتمعات ، فانهم لايفعلون شيئا سوى دخول معركة الصراع الاجتماعى بين الغاصبين لينتصر فريق على فريق . يدخلونها ، وياللسخرية ، من مواقع التشرد التىطردهم اليها االغاصبون . عند ئذ يكون بعدهم عن فهم مشكلة فلسطين مساويا لبعدهم عن الارض المغتصبة . وقد يقع الخطأ حتى بعيدا عن صفوف الطرودين أو التصدى المباشر لمشكلة فلسطين . فعندما ينسى بعض " أكلة " االكلمات الكبيرة الامة العربية التى ينتمون اليها والواقع القومى الذى تثور فيه المشكلة . ويقدمون الاممية بديلا عن القومية ثم تطرح مشكلة فلسطين ينتهى الامر بهم الى قبول الاحتكام الى وحدة الموقف من علاقات االانتاج " بصرف النظر عن الانتماء القومى" ، فيكون عليهم أن ، يقبلوا أن يزرع الفلاحون فى اسرائيل أرض الفلاحين العرب ، وأن يكون الفلاحون والعمال فى الارض المحتلة هم الحلفاء الطبيعيين للذين سلبت منهم الارض وفرص العمل فأصبحوا مشردين . ولما كان سكان المخيمات عاطلين فانهم ، اذن، الاحتياطى البشرى تحت قيادة " البروليتاريا " الاسرائيلية فى نضالها " الثورى " من اجل الاشتراكية . فهل يقبلون ماتنتهى اليه منطلقاتهم ام هى أخطاء غبية ؟.

النتيجة الثالثة : هى أن مشكلة فلسطين ليست مشكلة دولية ، بمعنى أنها ليست مشكلة ثائرة فيما بين االدول وليست مشكلة ثائرة ما بين الامة العربية من ناحية والمجتمع الدولى من ناحية اخرى . واذا كانت االدول تتدخل فى مشكلة فلسطين انتصارا للحق العربى أودعما للعدوان الصهيونى فان الذى يحركها هى مصالحها الخاصة ولو كان السلام العالمى هو مصلحتها الخاصة . واذا كنا نحن نقيم وزنا للدول ومجتمعها ومصالحها التى تحركها كما نقيم وزنا للسلام العالمى فلأن لنا فى هذا مصالح تحركنا . ذلك لأننا لسنا منعزلين عن الدول ومجتمعها ولانستطيع حتى لو اردنا ان نعزل انفسنا عن الدول ومجتمعها . ففى نطاق المجتمع الدولى نواجه حتمية القانون الذى عرفناه " كل شئ مؤثر فى غيره متأثر به" ولاشك فى أن مواقف الدول من مشكلة فلسطين تؤثر وتتأثر

ايجابيا وسلبيا ، بأسلوب حلها . وهو ما يعنى أن نأخذ من كل دولة ، ومن المجتمع الدولى كلـــه ، الموقف الصحيح ونحن نحاول أن نحل مشكلة فلسطين . ولكن ماهو مقياس صـــحة الموقــف؟.. مقياسه أن يكون مساعدا فى حل المشكلة أو أن يكون حلها لها . وهو مايعنى أن لمشكلة فلسطين حقيقة نعرفها هى التى تحكم مواقفنا من الدول ومن المجتمع الدولى ، وأن تـــدخل تلـــك الـــدول ومجتمعها الدولى فى الصراع الذى تثيره مشكلة فلسطين لايغير من حقيقتها التى نعرفها ونلتزمها : أن أرضنا العربية فى فلسطين مغتصبة... فليكن السلام العالمى هو المثل الذى نضـــربه ، لأن السلام العالمى غاية مشتركة بين البشر جميعا .

ان الحفاظ على السلام العالمى ــ طبقا لنظريتنا القوميةــ يتحقق باحترام الوجود الخـــاص لكـــل مجتمع كما هو محدد تاريخيا بصرف النظر عن الاسلوب الذى يقتضيه الحفاظ على السلام العالمى ، نريد أن نقول ان استعمال العنف لايعنى ــ دائما ــ أن ثمة خطرا يهدد الســـلام العـــالمى ، وقـــد يكون العنف ردا للعدوان هو الاسلوب الوحيد لحماية السلام العالمى . فنحن من موقفنـــا القـــومى لانصدق ولانفهم ادعاءات السلام التى تتستر على الانتقاص من وجودنا القومى . ونرفض تمامـــا أن ندفع أرض فلسطين أو أية ذرة من الأرض العربية ثمنا لتلك الادعاءات الكاذبة ، لالأننا لانريـــد السلام العالمى ولكن لاننا لانفهـــم الســـلام العـــالمى الا انـــه الكـــف عـــن الاعتـــداء واحتـــرام االوجودالخاص لكل المجتمعات البشرية . ان الدول لن تكف عن محاولات طرح مشكلة فلسطين كما تفهمها على ضوء مصالحها الخاصة ، ولن تكف عن طرحها كمشكلة سلام عالمى صادقة أو مختالة ، ولن تكف عن التدخل ، علنا او خفية ، من موقع االتحالف معنا او التحالف مع الصهيونية أو استغلال الطرفين معا لتحقق ماتريد وليس لنا أن نتوقع غير هذا وعلينا أن نجد لحل مشكلتنا الاسلوب الملائم لتحقيق غايتنا وسط كل هذه المؤثرات . لاشك فى هذا ولا انكار له ولكن عنـــدما ننزلق الى طرح مشكلتنا او قبول طرحها على انها مشكلة فيما بين الـــدول الاخـــرى او مشـــكلة االسلام العالمى انما ندفن مشكلة فلسطين تحت ركام الصراعات الدولية . وعندما ندفنها تغيب عنا حقيقتها فلانعرف كيف نحلها ، ثم يكون علينا أن نقبل الاحتكام الى الدول لتحكم كل منهـــا علـــى ضوء مصالحها االخاصة ، أو نحتكم الى مقتضيات السلام العالمى كما يقدرها القادرون على تدميره او الخائفون من القادرين . وينتهى الامر بنا الى دفع أرض فلسطين ثمنا مـــن دمنـــا ، لا للســـلام العالمى ، ولكن لتسوية جزء من حسابات االمصالح القائمة بين الدول.. وعندما نعرف أن مشكلة فلسطين ليست مشكلة دولية بالمفهوم الذى ذكرناه ، ولاننسى انها مشكلة أرض عربيـــة مغتصـــبة نفلت من شباك التضليل الذى يثيره ادعياء العلم بالقانون الـــدولى عنـــدما يزعمـــون ان مشـــكلة االغتصاب الارض العربيةفى فلسطين قد حلت منذ أن اعترف المجتمع الدولى بدولة اسرائيل وقبلها عضوا فى هيئة الامم المتحدة .

وانها منذ ذلك الحين قد أصبحت مشكلة سلام بين الدول المتجاورة . ان فقـه القـانون االـدولى ملئ بالنظريات عن الاعتراف بالدول وطبيعته المنشئة أو المقررة أو المختلطة ، وبآثاره الملزمـة فيما بين االدول المعترف بها والدولة أو الدول المعترفة .ولكن ليس فى فقه القانون الدولى ولا فى قواعده ولا فىتنظيماته مايجعل لاعتراف دولة بدولة ثانية أثرا ملزما لدولة ثالثة لم تعترف بها . اذ أن القعدة الاساسية التى يقوم عليها كل بناء القانون الدولى هى أن الدولة لاتلتـزم الا بارادتهـا الخاصة . فما الذى يعنيه اعتراف كثير من الدول باسرائيل؟. ... يعنى أن تلك الدول قـد أصـبحت ملتزمة بارادتها بأن تعامل اسرائيل كدولة مادامت قائمة . ولا يعنى شرعية قيـام اسـرائيل علـى الارض العربية المغتصبة لان القرارات التى تأخذها الدول ، كما يعرف الـذين يعلمـون المبـادئ الاولية فى القانون الدولى ، غير قابلة لاحداث أثر مشروع خارج نطاق الاقليم الذى تنصب عليـه سيادتها . ومادامت الدول التى اعترفت باسرائيل ليست ذات سيادة على اقليم فلسطين فان اعترافها يضفى الشرعية على تعاملها مع اسرائيل ولكنه لايضفى الشرعية على دولـة اسـرائيل ذاتهـا . لايحول الاغتصاب الى عمل مشروع . ان هذا يقع خارج نطـاق مقـدرة الـدول وهـى تمـارس سيادتها لالأننا نريد ذلك ، ولكن لان تلك هى احكام القانون الدولى الذى يحتجون به كثيرا . اكثـر من هذا ان الاعتراف بدولة اسرائيل لايتضمن االالتزام بالمحافظـة علـى وجودهـا . والا لكـان الاعتراف المشروع دوليا حماية غير مشروعة .

ومن هنا ندرك كم هى زائفة المقولة التى يهمس بهاالبعض ويهددنا بها الاخرون : مادامت الدول قد اعترفت بوجود اسرائيل فانها لن تسمح بزوالها . أبدا. فيوم ان تزول دولـة اسـرائيل يصـبح الاعتراف السابق بوجودها غير ذى مضمون ويسقط . قد تدافع دولة أو أخرى عن وجود اسرائيل ولكن هذا لن يكون أثرا ملزما من اثار الاعتراف بها . سيكون حماية لمصالحها يا كان مضـمون تلك المصالح ... ان اعتراف كثير من الدول ،اذن ، باسرائيل لم يحل مشكلة فلسطين ولكنه كان حلا لمشكلات التعامل بين تلك الدول وبين اسرائيل . وبالتالى فان المشكلة ، كما هى على حقيقتها ، ماتزال قائمة بالرغم من الاعتراف بدولة اسرائيل .. أما عن هيئة الامم المتحدة فـان مبادئهـا الاساسية الواردة فى المواد الاولى من ميثاقها تنكر شرعية الاستيلاء على الارض بالقوة . وعندما قبلت هيئة الامم المتحدة اسرائيل عضوا فيها ، قبل أن تجف دماء المذابح فى االارض المغتصبة ، لم يكن الاعضاء الذين قبلوا يفعلون شيئا اقل من خيانة ميثاقها . وخيانة الميثاق ليست ملزمة لمن قبلوا الميثاق . نريد ان نقول انه بحكم ميثاق هيئة الامم ذاتها ليس لاعضائها ولو مجتمعـين أن يخالفوا ميثاقها .وعندما يخالفونه تكون قراراتهم غير مشروعة طبقا للميثاق ذاته فهى ليست حجة على الدول التى قبلت ان تكون اعضاء فى هيئة الامم المتحدة على اساس الالتزام المتبادل بالميثاق . هذا كله بدون حاجة الى اثارة مالابد أن يعرفه العالمون بميثاق هيئة الامم المتحدة ، من الـذى وضعه ، وكيف وضع ، وفى اية ظروف دولية وضع ، وماهى المصالح" الحقيقية" التى وضـع

لحمايتها . وبدون اثارة مايعرفه حتى الذين لايقرأون ولايكتبون من أن هيئة الامم المتحدة التـــى قبلت اسرائيل وماتزال ترفض الصين ليست الا اداة فى يد من يملك القوة فيفرض بهـــا االقـــرارات الدولية .. والغريب انه بينما يتردد الزعم فى اطراف الارض جميعا بأن اسرائيل وجـــدت لتبقـــى ، وبأن مشكلة اغتصاب االارض العربية قد حلت منذ اعتراف المجتمع الـــدولى بوجـــود اســـرائيل ، يعرف الصهاينة قبل غيرهم انها ماتزال قائمة لم تحلها اعترافات الدول فيقاتلون منذ ســـنة 1948 حتى سنة 1967 . ويتشبثون بالارض التى احتلوها أخيرا فى مواجهة كل الضغوط الدولية من اجل الاعتراف بوجودهم على الارض التى اغتصبت اولا من اجل فرض هذا الاعتراف بالقوة على الامة العربية ..

هل تتغير حقيقة مشكلة فلسطين فيما لو اعترفت باسرائيل احدى الدول العربية ، او الدول العربية مجتمعة، أو شعب فلسطين نفسه ممثلا بدولة مصنوعة او بدون دولة ؟ أبدا.. وهذا ينقلنا الـــى الجانب" الداخلى" من المشكلة كما نفهمها على ضوء نظريتنا القومية .. فقد عرفنـــا مـــن وحـــدة الوجود القومى (فقرة 22) أن" المميز الاساسى للامة عن الجماعات الانسانية السابقة عليها هو عنصر الارض الخاصة المشترة . الخاصة بالجماعة البشرية المعينة دون غيرها مـــن الجماعـــات الانسانية االاخرىالمشتركة بما بين الناس فيها" وحذرنا هناك من" التساهل" فـــى هـــذا العنصـــر المميز للتكوين القومى . وقد عرفنا فيما سبق الموقف القومى من مشكلة فلسطين كما يحدده وان الارض العربية خاصة بالشعب العربى . بقى أن نعرف الموقف القومى من مشكلة فلســـطين كمـــا يحدده كون الارض العربية" مشتركة" فيما بين الشعب العربى . انه يحدده من ناحيتين : الناحيـــة الاولى : لما كانت الامة العربية تكوينا تاريخيا فان اشتراك الشعب العربى فى الوطن العربـــى هـــو مشاركة تاريخية بين الاجيال المتعاقبة . وهذا يعنى انه ليس من حق الشعب العربـــى كلـــه مـــن الخليج الى المحيط ، ولو كان ممثلا فى دولة الوحدة ، ان يتنازل عـــن ارض فلســـطين او يقبـــل الوجود الصهيونى على الارض المغتصبة . انه بهذا يتصرف فيما لا يملكه وحده لانه ملك مشترك بينه وبين الا جيال العربية القادمة .

ولو فعل لما كان مايفعله حجة على الاجيال القادمة من الشعب العربى .. الناحية الثانية انه لمـــا كانت الارض العربية شركة بين الشعب العربى فليس من حق أى جزء من الشعب االعربـــى ولـــو كان شعب فلسطين نفسه ان يتنازل عن أرض فلسطين أو يقبل الوجود الاســـرائيلى علـــى الارض االعربية المغتصبة . انه بهذا يتصرف فيما لايملكه وحده لانه ملك مشترك بينه وبين بـــاقى شـــعب الامة العربية . ولو فعل لما كان مافعله حجة على الشعب العربى . ان هذه الناحية الثانية أكثـــر واقعية من الناحية الاولى . اذ ان دولة الوحدة لاتكتمل وجودا مادامت ارض فلسطين مغتصبة ولو شملت باقى لوطن العربى . وانما اردنا ان ندفع بالفروض الى نهايتها لنؤكد بأوضح مايمكن عـــدم

شرعية التنازل عن ارض فلسطين أيا كان الجانب" العربى" المتنازل ، ولو كان جيلا كـــاملا مـــن الشعب االعربى تمثله وتنوب عنه دولة واحدة تعترف بالوجود الاسرائيلى على ارض فلسطين . ان أى جزء من الشعب االعربى ممثلا فى دولته ، او الشعب العربى كله ممثلا فى دولة واحـــدة ، او شعب فلسطين ممثلا فى دولة أو بدون دولة ،يعترف بدولة اسرائيل لن يفعل بهذا شيئا اكثـــر مـــن الزام نفسه بالتعامل معهاكدولة ولكن مشكلة الارض االمغتصبة ستبقى قائمة يحلها حلها الصـــحيح جيل قادممم من الشعب العربى يصحح خيانة جيل سبقه . ولن يستطيع احد ان يحتج على الـــذين يتصدون لاسترداد الارض المغتصبة بالاعتراف الصادر من غيرهم او بـــالاعتراف الســـابق علـــى وجودهم . لانهم كشركاء فى الارض العربية شركة تاريخية غير ملـــزمين بمـــا فعلـــه او يفعلـــه شركاؤهم الاخرون .

مشكلة فلسطين ، اذن، لن تحل بالاعتراف بدولة اسرائيل يأتى من أى جانب عربى لانها مشـــكلة ارض مغتصبة ، لا من أى جيل من الشعب العربى يملكها وحده فيملـــك ان يتنـــازل عنهـــا ، بـــل مغتصبة من الامة العربية واجيالها المتعاقبة . ومن هنا ندرك جسامة خطأين متداولين فـــى طـــرح مشكلة فلسطين : الخطأ الاول: هو الزعم بأن العدوان الصهيونى موجه ضد دولة عربية او بضـــع دول عربية ، وبالتالى تكون االمشكلة قائمة بين اسرائيل وبين تلك الدولة او الـــدول . صـــحيح ان الصهيونية المعتدية عندما استولت على االارض العربية كانت الارض التى اغتصبتها جـــزءا مـــن اقليم" شبه" الدولة التى كانت قائمة فى فلسطين تحت الانتداب البريطانى . وعندما اعتدت اسرائيل مرتين سنة 1956 وسنة 1967 ، ومرات عديدة فيما بينهما ، اا صطدمت بالدول العربية لقائمـــة على الارض المعتدى عليها .وانها ان تتوسع اكثر تصطدم بدول عربية اخرى لم يدركها العـــدوان بعد . هذا صحيح لان الارض التى ااغتصبتها الصهيونية او احتلتها اسرائيل لم تكـــن خاليـــة مـــن البشر ومن الدول . وان الارض العربية التى حددتها لتكون وطنا لدولة اسرائيل مـــابين الفـــرات والنيل ليست خالية من البشر ومن الدول .ويثير كل هذا مشكلات جديدة بين اسرائيل والدولـــة او الدول العربية المعتدى عليها . مشكلات الاستقلال والامن وضمان الحدود . وتضاف تلك المشاكل الى قائمة المشكلات القومية على اساس ان" كل مشكلة فى الامة العربية هى مشـــكلة قوميـــة" . صحيح ايضا انه كلما تحرر الشعب العربى فى اية دولة عربية من قيـــود الاســـتعمار والاســـتبداد والاستغلال . وكلما نمت مقدرة الشعب العربى فى أية دولة عربية على التقدم الاجتماعى . انتبهت الصهيونية االى المخاطر المقبلة التى تتعرض لها مخططاتها فيما لو سمحت لذلك النمو ان يبلـــغ غايته . اولا: لانه بقدر مايتحرر الشعب العربى بقدر مايستطيع ان يحل مشكلة فلسطين . وثانيـــا: لان محاولات التقدم ولو فى ظل الاقليمية لن تلبث ان تعلم الجادين فعلا فى ممارسة التنمية انهـــم يفتقدون الامكانيات المادية والبشرية الوفيرة المتاحة فى الامة االعربية وان" التقدم لايقـــوم علـــى اساس التجزئة" عندئذ يعرفون ان مشكلة فلسطين هى مشلة تخلف وان االوجود الاسرائيلى قيـــد

ثقيل على محاولات التقدم الاجتماعى فيواجهون دولة الصهيونية بالارادة التـــى لاتهـــزم : ارادة التقدم الاجتماعى. وثالثا : لان التنمية فى ظل التحرر توفر افضل امكانيات التحرير ، ومـــن هنـــا لايكون غريبا مانلاحظه من ان مشكلة فلسطين تزداد حدة كلما تحققت فى الوطن العربـــى خطـــوة تحررية . وان الصراع ضد الصهيونية يصبح اكثر شراسة كلما تحققت خطوة تقدمية . وان قواها العربية تفرز وتتبلور ، رويدا رويدا، فى القوى التقدمية . الم نر كيف انها الان سنة 1971 اكثـــر حدة من سنة 1948 . وان اسرائيل قد اصبحت الاكثر شراسة من ذى قبل . وانها تـــدخر قوتهـــا الضاربة وتعدها وتستعملها لهدم كل تقدم بناء فى الجمهورية العربية المتحدة ، حيث يعيش ثلـــث الامة العربية ، وحيث تقوم اكثر الجهود جدية فى البناء الاجتماعى .ويبدو الامر من تتابع العدوان وتوقيته كما لو كان الاسرائيليون يضعون خطط الهدم على اساس خطط التنمية فى االجمهوريـــة العربية المتحدة . عدوان يهدم ، ثم فترة ليتفرغ فيها الشعب العربى لاعادة البناء ويبذل فى كـــل هذا مايتجوز طاقته من تضحيات بشرية ومادية ومالية ، وعندما يقارب البناء مرحلة الاثمـــار ، أى فى تلك االلحظة المنتقاة حيث يكون الشعب العربى على وشك ان يذوق ثمار جهـــده ، تختلـــق الذرائع وياتى عدوان اسرائيلى جديد ليهدم .. وهكذا .

الم نر كيف تحول الصراع سنة 1967 من معركة تهزم فيها القوات اوتنتصر ثم تـــنفض الـــى سباق حياة او موت بيننا وبين اسرائيل . ولم تســـتطع اســـرائيل هـــذه المـــرة ان تضـــرب ثـــم تعود فتسرح قواها وتعد نفسها لجولة قادمة . بل اضطرت للبقاء فى ساحة المعركة والدفاع حتى الموت عن وجودها بان تفرض حتى الموت ذلك الوجود والاعتراف به قبل ان تكمل القوى القومية فى الوطن العربى مسيرتها التقدمية . كل هذا صحيح وواقعى .. ولكنه يقـــوم علـــى مســـتوى اسلوب الصراع الذى تثيره مشكلة فلسطين . انها مشكلات ولدتها المشـــكلة االاصـــلية ، تنصـــب مضامينها على متطلبات الصراع وعدة النصر فيه . فهو لايطغى على مشكلة فلسطين ولايغير من حقيقتها ولايقوم بديلا عنها . ولو كانت اسرائيل تعلم ، او حتى تتوهم ، ان التقدم الاجتماعى فـــى ايةدولة عربية ، لن يبنى لها من بين مايبنى ، القبر الذى تدفن فيه ، لما همها فى كثير و قليـــل ان تقوم بجوارها دولة نامية تتبادل معها السلع والخدمات والخبرات.

و لما بلغ اهتمامها حد القتال لهدم البناء التقدمى فى الدول العربية . انما هى تهدم لانها تعلـــم ان ذلك البناء احد اساليب النصر فى الصراع الذى تثيره مشكلة فلســـطين . وهكـــذا تبقـــى مشـــكلة فلسطين ، كما هى، مشكلة اغتصاب الارض العربية بصرف النظر عن الدولة او الدول االتى كانت قائمة ، والقائمة ، والتى تقوم على تلك الارض . ذلك لان الارض التى تقوم عليها الدول العربيـــة ليست ارضا خاصة بتلك الدول او بشعوبها . ان للشعب العربى فى كل دولة حقا مشتركا بينه وبين باقى االشعب العربى خارج حدودها السياسية . من هنا لانستطيع ان نفهم ، من الموقف القـــومى ،

كيف يمكن ان يكون اغتصاب او احتلال اية ارض عربية هو مشكلة" خاصة" بين المعتدين وبين الدولة او الدول العربية التى تلقت ضربة العدوان . فلا نفهم ان يكون اغتصاب الارض العربية سنة 1948 واحتلال مزيد من الارض والمياه الاقليمية فى سنتى 1956و1967 ومابينهما مشكلات اقليمية قائمة بين اسرائيل والدول العربية" المعنية" كما يقولون . وعندما لانفهم المشكلات على هذا الوجه الزائف نرفض – من ناحية– ان تتنازل اية دولة عربية عن ارض فلسطين المغتصبة سنة 1948 فتعترف ولو فى مقابل استردادها للارض المحتلة فى سنة 1967 . ونرفض – من ناحية ثانية– ان تتنازل اية دولة عربية عن ذرة من الارض التى تقوم عليها لاسرائيل ولو فى مقابل استردادها مايتبقى من ارض محتلة .ونرفض – من ناحية ثالثة – ان تكون مسئولية تحرير الارض المغتصبة واقعة على عاتق جزء من الشعب العربى كله من المحيط الى الخليج . فكما نرفض ان تساوم بعض الدول العربية على جزء من الوطن العربى لتسترد جزءا منه ، نرفض ان يهرب جزء من الشعب العربى من المعركة ليتحمل جزء منه مسئولية الامة العربية كلها. مشكلة فلسطين اذن مشكلة قومية وليست مشكلة اقليمية .

واذا كان الصهاينة وحلفاؤهم يزعمون ولايكفون عن ترديد مزاعمهم بأن مشكلة فلسطين هى مشكلة حدود آمنة واعتراف متبادل بين اسرائيل وجاراتها من الدول العربية فذلك مايقوله المعتدون وحلفاؤهم ليكسبوا به جولة الصراع حول وجود اسرائيل ليبدأوا بعده مراحل بناء دولة الصهاينة ، حربا حربا ، مابين الفرات والنيل . وعندما ننزلق نحن فننسى أن مشكلة فلسطين هى مشكلة اغتصاب أرض فلسطين (أليس هذا بدهيا ؟.) ونطرحها كما لو كانت مشكلة توسع على حساب دولة او اكثر من الدول العربية نكون قد سلمنا للصهيونية بما اغتصبت من الارض العربية قبل سنة 1967 . وعندما ينسى الاقليميون الامة العربية التى ينتمون اليها والواقع القومى الذى تثور فيه المشكلة ويرددون كالببغاوات العجماء أن لكل دولة" عربية" شعبها الخاص ومصيرها الخاص ... ويناقضون القومية بالاقليمية ، يناقضون الكل بالجزء ، يناقضون الشامل بالمحدود ، يناقضون العام بالخاص ، فيفتعلون بكل هذا تناقضات غير قائمة ، انما يخفون التناقض الحقيقى القائم بين الشعب العربى والوجود الاسرائيلى ، وينتصرون فيه للصهيونية وحلفائها بترديد دعواهم الزائفة . اذ عندما ينحرفون الى المواقع الاقليمية ويزعمون ان لكل دولة عربية وجودا ومصيرا خاصا ومستقلا يواجهون بأن الاستقلال علاقة ذات طرفين . استقلا بالنفس عن الغير . والغير هنا هو شعب فلسطين وارضه المغتصبة . ويصبح تدخلهم فى مشكلة فلسطين تجاوزا لاستقلالهم واعتداء ، أو تطفلا، على استقلال الاخرين يستحق الردع او يستحق السخرية ويسخر العالم كله فعلا من الذين يدعون انهم مستقلون بوجودهم ومصيرهم ثم لايتركون فلسطين لمصيرها . وعندما تطرح مشكلة فلسطين على الذين يرددون المنطلقات الاقليمية لايكون امامهم الا الاحتكام الى القواعد الدولية التى تنظم علاقة الجوار فيما بين الدول : الاعتراف المتبادل وتبادل التمثيل السياسى ودعم

الصداقة ... او ــ على الاقل ــ قبول حماية الدول لحدود دولهم لتضيع ارض فلسطين ا الواقعة خارج تلك الحدود . فهل يقبلون ماتنتهى اليه منطلقاتهم ام هى اخطاء غبية ؟.. الخطأ الثانى المتداول فيما يطرح عن مشكلة فلسطين ليس الا "تطبيقا خاصا" للخطأ الاول . انه الزعم بأن مشكلة فلسطين هى مشكلة خاصة بشعب فلسطين . يقولون ان شعب فلسطين هو الذى كان يعيش على االارض المغتصبة .وهو الذى طرد منها . وهو الذى مايزال مشردا" بدون ارض وبدون هوية" . وهو الذى سيعود الى الارض عندما تسترد . فهى مشكلته الخاصة . هل يستطيع أحد ان ينكر ان اغلب الذين يعيشون على الارض المغتصبة هم الذين طردوا منها بالأمس . المشردون خارجها اليوم ، العائدون اليها غدا؟.. لأحد . اناحتجوا بالواقع غير المنكور ترسى القومية له أسسه العقائدية ":ان وحدة الوجود القومى تعنى اختصاص الشعب بالوطن . ولما كان الشعب امتدادا من البشر على الارض فان وحدة الوجود القومى لاتناقض ولاتلغى ولاتنفى ولاتحول دون اقامة جزء من الشعب على جزء من الوطن . فتلك هى الممارسة الفعلية التى تجسد وحدة الوجود القومى" . (فقرة 30) . عودة المطرودين المشردين الى الارض المغتصبة ليست ــ اذن ــ مجرد استرداد للمزارع والمصانع والمتاجر والمنازل ، ليست مجرد عملية انقاذ لساكنى المخيمات ، انها أكثر من هذا عمقا وضرورة . انها الممارسة الفعلية التى تجسد وحدة الوجود القومى ومع هذا فليست مشكلة فلسطين مشكلة خاصة بشعب فلسطين اذ ان هذا هو الوجه الثانى من عملة الاقليمية الزائفة . فحيث لاتتوافر لهم شجاعة الكشف عن الوجه الخاص بهم ليقولوا أن مشكلة فلسطين ليست مشكلتنا الخاصة ، يكشفون الوجه الاخر فنقرأ" مشكلة فلسطين خاصة بشعب فلسطين" .ويسترون هذا الخداع باكثر الصيغ عطفا على شعب فلسطين : رفع الوصاية عن شعب فلسطين ، عدم التدخل فى شؤون فلسطين ، حق تقرير المصير لشعب فلسطين ، الحقوق" القومية" لشعب فلسطين ، التحالف مع شعب فلسطين ، بطولة شعب فلسطين .. الى آخر تلك الصيغ الزائفة مهما تكن عاطفة . اذ ان حصيلتها النهائية أن اذهب أنت ياشعب فلسطين وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون . عندما يصدر هذا كله او بعضه من الاقليميين الذين لم يطردوا ولم يشردوا من ارض فلسطين ولن يعودوا االيها ولو كانت خالية من اسرائيل يكون مفهوما تماما انها الاقليمية الهاربة من الصراع من اجل استرداد ارض لاتعتبرها ارضها المتطلعة الي الافلات من مشكلة لاتعتبرها مشكلتها . والتى لامانع لديها ــ فى كل الحالات ــ ان يقبل المطرودون التعويض بدلا من العودة . ان يبيعوا ارض الوطن لمن يستطيع ان يدفع الثمن ، ثم تبقى اسرائيل . اما ان يصدر هذا كله او بعضه من المطرودين المشردين انفسهم فذلك امر غريب مريب .ان يقبل المطرودون المشردون من الارض المغتصبة ان مشكلة فلسطين هى مشكلة خاصة بشعب فلسطين لايفعلون شيئا سوى ابتلاع الطعم المسموم الذى القته الاقليمية فى افواههم . ويكون عليهم ان يتمثلوا نتائجه القاتلة حتى النهاية : السماح للاقليميين بالهروب من المعركة : وصد القوميين عن الاسهام فى المعركة

، ومحاولةاسترداد الارض الخاصة بهم من مواقعهم فى الارض التى تخـص غيـرهم . وعنـدما يواجهون الاقليمية االمخاتلة تقول لهم استردوا ارضكم كما تشاؤون ولكن لاتمسوا سـيادتنا علـى ارضنا ، وتدفعهم بالعطف المخادع أو بالقوة الغاشمة الى ان يقبلوا جزءا من الارض المغتصـبة ليقيموا عليها " دولة فلسطينية" يكون مجرد قيامها اعترافا حيا بدولة اسرائيل..حينئذ سيشـعرون ببرودة الموت الذى دفعتهم اليه الاقليمية . فهل تقبلون ما تنتهى اليه منطلقاتهم ام هى أخطاء غبية ؟.. ليس ثمة امة تخلو من الخونة . ولكنا لانستطيع ان نسند الخيانة الى أى عربى لانملـك علـى خيانته دليلا غير قابل للشك . فقد علمتنا القومية ان مصيرنا مرتبط بمصير ابنـاء امتنـا حتـى الاغبياء منهم والمخطئين . فلنقل اذن انهم لايقبلون ماتنتهى اليه منطلقاتهم .:كـل هـؤلاء الـذين يشوهون مشكلة فلسطين ، او اغلبهم، فيطرحونها كما لو كانت مشكلة دينيـة ، او مشـكلة نظـم اجتماعية ، او مشـكلة دوليـة ، او مشـكلة اقليميـة ... لايقبلـون الوجـود االاسـرائيلى فـى فلسطين ويجتهدون ــ بحسن نيةــ لحل مشكلة لم يفهموها فهما قوميا فلم يفهموها فهما صحيحا فتأتى الحلول خاطئة . انهم اذن يخذلون انفسهم وتلك قمة الغباء .

الا يقولون جميعا ان مشكلة فلسطين مشكلة" عربية" ويستغيثون بالمائة مليون عربى بدون ان يقولوا انها مشكلة" قومية"ثم لايفطنون الى أن العروبة التى لاتعنى الانتماء الاجتماعى والمصيرى الى الامة العربية هى كلمة"فارغة" من أى مضمون لايقوم عليها التزام بغايـة . الايقولـون انـه صراع دينى ولايفطنون الى ان الوطن العربى هو مصدر الاديان وأن حركة التقدم العربى فـى تاريخها الطويل قد جمعت الاديان جميعا الا يتذكرون ان الصهيونية قـد اعتـدت اولا والـنظم االعربية عميلة الاستعمار ، واعتدت ثانيا والنظم العربيـة متحـررة ، واعتـدت اخيـرا والـنظم العربية تقدمية وفى كل مرة كانت تستهدف الارض لتخليها من البشر ثم يقولون انه صراع بين النظم الاجتماعية ؟.. الايعرفونأن الدول الاستعمارية هى التى كانت ومـاتزال تصـنع القـرارات الدوليية ، بالقوة ، ومع ذلك يحتجون بالقرارات الدولية ؟ .الا يعلمـون انـه عنـدما وضـعت الصهيونية مخططات اقامة دولتها على الارض العربية واختارت فلسطين بداية فى مؤتمر بال سنة 1897 لم تكن ثمة دولة عربية قائمة فى الوطن العربى ، لا فى فلسطين ولا فى غير فلسـطين ، بما تعنيه الدولة من سيادة على الارض ، بل كـان الـوطن العربـى امـا جـزءا مـن الدولـة االعثمانية واما اجزاء يحتلها المستعمرون الاوربيون ثم يزعمون ان الصهيونية تقصد بالعـدوان هذى أوتلك من االدول العربية ؟..

الا يرون ان" الممارسة" الفعلية للصراع بين الشعب العربى والحركـة الصـهيونية حـول الارض المغتصبة فى فلسطين يثبت ان مشكلة فلسطين مشكلة قومية ، فتدخل حلبة الصراع الذى تثيـره اجيال متعاقبة من الشعب العربى ، من كل دولة ، بدون توقف على القرارات الدولية .. ولايسـمح الصراع ذاته لاى جيل عربى ، او جزء من الشعب العربى ، أو أية" طبقة" أو أية دولة ان تهـرب

من حلبته فيقتحم العدوان الصهيونى واثاره المخربة كل مكان فى الوطن العربى لايمنعــه الهــرب ولاتصده القرارت الدولية ؟.. فلماذا هذا الاصرار االغبى على انكار القومية وهى العلاقة الوحيــدة التى تفسر الممارسة وتبررها وتمكننا من النصر فيها فلا تخذلهم ولاتهزم غايتهم ان كانوا ــ حقــا ــ لايقبلون الوجود الاسرائيلى فى فلسطين ؟.. ان كان هذا غائبا عن" فطنــة" الــذين يشــوهون مشكلة فلسطين ، وعجز الموقف القومى عن ان ينبههم الى مايخذلون به انفسهم فلعلهم ينتبهون اليه عندما يعرفون الموقف الصهيونى من مشكلة فلسطين . لعلهم ، ان كانوا عاجزين عن تحديــد مواقفهم" عقائديا" من مشكلة فلسطين أن يأخذوا الموقف المضاد لاعدائهم بعد ان يعرفوه ، ولــو عرفوه ثم اخذوا منه موقفا مضادا لوجدوا انفسهم فى الموقف القــومى وان كــانوا قــد وصــلوا اليه كرد فعل لافاعلين ..

الموقف الصهيونى:

نشأت الصهيونية فى اوروبا نتيجة عدة عوامل متفاعلة . اولها ان" التــوراة" التــى يتــداولها اليهود ، وهى كتاب ظهر لاول مرة فى عهد الملك يوشا بعد وفاة موسى بن عمران بسبعة قرون كاملة (سفر الملوك الثانى، اصحاح 22) ، علمت وتعلم اليهــود أنهــم" شــعب الله المختــار" وتضعهم فى موقع العزلة الممتازة من الشعوب الاخرى . وتسند التوراة هذا الاختيار الى اعجــاب الله بقوة يعقوب وبذلك تحدد لليهود مضمون امتيازهم على الاخرين بانهم اقوى من غيــرهم . ذلك لان الله قد اختارهم واسمى يعقوب ، جدهم الاعلى ، باسم" اسرائيل" علــى اثــر مصــارعة جسدية قامت بين يعقوب وهو فى طريقه الى ارض كنعان وبين الله ذاته ، لم يهزم فيهــا يعقــوب فاعجب به الله وباركه واختاره (سفر التكوين 322 ايه 25ــ 29) وهكذا استقر فى أذهان أجيال متعاقبة من اليهود" ايمان" بانهم شعب قوى ممتاز اختاره الله فاختصــه برعايتــه دون البشــر أجمعين ، وحذره من الاختلاط بالشعوب الاخرى حتى لاتلوث نقاؤه" انى أدفع أيديكم سكان الارض فتطرحهم من أمامك . لاتقطع معهم ولامع الهتهم عهدا . لايسكنوا فى أرضك لئلا يجعلوك تخطئ" (سفر الخروج اصحاح 23 اية 22، 23) . قد أدت تلك الاساطير القبلية الى ان أصبحت اليهودية بالنســبة الــى المتــدينين مــن اليهــود ، تتضــمن" عنصــرية" مقدســة نــتجمعهم علــى عداء "مقدس"للشعوب ولم يكف كهنة اليهود عن تغذيتها بحيث اصبحت القيم اليهودية ذات حدين ، فبينما تفرض على اليهود التزامات وثيقة بالتضامن الاجتماعى فيما بينهم تبيح لهم أن يعــاملوا الشعوب الاخرى بدون قيد اخلاقى او اجتماعى. قال حكماء صهيون :" اضربوهم وهم يضحكون . اسرقوهم وهم لاهون ."]>,أ ارجلهم وانتم راكعون . ادخلوا بيوتهم واهدموها . تسللوا الى قلــوبهم ومزقوها" . أما" يهو" الاله الخاص ببنى اسرائيل فقد وعد شعبه المختار بأن يقوده الــى" مــدن عظيمة لم تبنها ، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها ، وآبار محفورة لم تحفرها ، وكروم زيتون لم

تغرسها" (سفر التثنية . اصحاح 6 اية 11). ، وتكمل الاساطير البناء الاجتماعى القبلى فتقدم الى اليهود وحدة الاصل لتؤدى وظيفتها فى التضامن الاجتماعى الداخلى فتقول ان كل اليهود فى كل مكان من الارض، ومن أى جنس ، وأى لون ، هم سلالة الاسباط الاثنى عشر ابناء يعقوب (اسرائيل) بن اسحق بن ابراهيم ووحدة الرمز (الطوطم) فى جبل صهيون الذى دارت فوقه المصارعة التى اثبتت قوة اسرائيل (يعقوب) التى لاتقهر. اننا نتعرف فى كل هذا على خصائص الطور القبلى الذى مرت به كل المجتمعات : الاله الخاص، والاصل الواحد ، والتضامن الداخلى، والعدوان الخارجي، وتمجيد القوة . وهو طور كان سائدا فى جميع انحاء العالم يوم أن ظهرت التوراة لاول مرة فى اوائل القرن الخامس قبل الميلاد.وعلى هذا فان اليهود لم يكونوا بدعة قبلية لا فى تكوينهم ولا فى اساطيرهم يوم ان كانوا طرفا فى الصراع القبلى الذى كان يدور فى كل مكان من الارض والذى انتصروا فيه مرات وانهزموا فيه مرات ثم انتهى بهزيمتهم النهائية عسكريا بالغزو الرومانى وفكريا بظهور المسيحية . ثم جاءت مرحلة الاستقرار على الارض بالفتح الاسلامى فدخلت بقايا القبائل اليهودية فى شرق وجنوب البحر الابيض المتوسط مع غيرها من القبائل والشعوب الاخرى ، مرحلة التكوين القومى واصبحوا عربا ، ولعل مثل هذا التطور ان يكون قد حدث فى كل مكان عاش فيه اليهود ، الا اوروبا . ففى اوروبا عاش اليهود قرونا منعزلين فى أحياء مقصورة عليهم عرفت باسم" الجيتو" حتى نهاية القرون الوسطى . ولم يكن أى" جيتو" الامجتمعا قبليا مغلقا على اصحابه حبس تطور الجماعات اليهودية فى اوروبا عند الطور القبلى لايتجاوزونه .

وكان مرجع ذلك ان اليهود فى اوروبا كانوا محاصرين بتعصب كنسى يظن ان له عند اليهود تأثرا قديما : صلب المسيح . من أجله طردهم فيليب اوجست من مملكته . ومن اجله أمر البابا انوسنت الثالث بأن يميز اليهود بعلامات توضع على ملابسهم . ومن اجله احرقت كتب اليهود فى الميادين العامة . وقد يكون وراء كل هذه الاساطير ذلك السلاح الاستغلالى الفتاك الذى يجيده اليهود : الربا . فبينما كانت الكنيسة تحرم الربا ، كانت اليهودية تأخذ منه موقفها القبلى ، فهى تحرمه فيما بين اليهود وتبيحه اذا كان ضحيته غير يهودى .وعن طريقه مول اليهود فى اوروبا امراء الاقطاع فى حروبهم التى لاتنتهى وفى ترفهم الذى لايشبع فسيطروا عليهم وسيطروا على الشعوب من خلالهم وكان رد الفعل تحديد اقامتهم فى اماكن خاصة وتحريم كثير من انواع النشاط المنتج عليهم .

أيا ماكان الامر فان اليهود فى اوروبا ظلواحتى نهاية القرون الوسطى فى الطور القبلى بكل خصائصه التى عرفناها . ثم جاءت الثورة الليبرالاية فاطاحت بالتعصب الكنسى ، وانهت قضية الثأر القديم ، بل وأدت، على المستوى الدينى ذاته ، الى لقاء بين المسيحية واليهودية فى المذهب البروتستنتى، وتجسد كل هذا فى اعلان حقوق الانسان الذى اصدرته الثورة الفرنسية التى حرصت على الغاء كلمة الدين من اية وثيقة دستورية . وكانت فى كل هذا نموذجا للثورات

التحررية التى عمت اووروبا وانهت عهد الاقطاع . وهكذا ، بعد تخلف حضارى طويل ، فتح بـــاب التطور واسعا امام اليهود ليغادروا الطور القبلى ويندمجوا فى المجتمعات الاوروبية التى يعيشـــون فيها . وقد غادرته الكثرة الغالبة منهم خاصة فى اوروبا الغربية حيث اصبحوا افرادا عاديين فـــى مجتمعاتهم ، وتخلف عن الركب الحضارى قلة قليلة متناثرة فى اوروبا الشرقية المتخلفة بدورها . وقد كان من الممكن ان ينتهى الامر بتلك القلة الى ان تتطور وينتهى عهد العصبية اليهودية لولا ان الليبرالية التى جاءت بالتسامح الدينى فى ظل" الاخاء والحرية والمساواة" قد جـــاءت ايضـــا بالنظام الراسمالى . بقانون المنافسة الحرة واطلاق الافراد من أى التزام من قبل المجتمع الـــذى ينتمون اليه .ثم بعدم تدخل الدولة فى النشاط الفردى على اساس أن" مصلحة المجتمـــع ســـتحقق حتما وتلقائيا من خلال تحقيق كل فرد مصلحته" بحكم القانون الطبيعى . واخيـــرا بإباحـــة الكـــذب والغش والخديعة والتعسف والربا والغبن والاكراه الاقتصادى والادبـــى طبقـــا للقاعـــدة القانونيـــة الليبرالية الشهيرة :" القانون لايحمى المغفلين" .

فأتاحت الراسمالية للعنصرية اليهودية المتخلفة أوسع الفرص لتجسد ــ ايجابيا ــ عداءها القبلى" المقدس" للشعوب بوسائل أصبحت مشروعة فى ظل الليبرالية . وتحول كل" جيتو" الى وكر تـــآمر وتخطيط وتعبئة نشيط ومعاد لكل ما ومن ليس يهوديا . وانطلقت العنصـــرية اليهوديـــة بذهنيـــة" المؤمنين" بامتيازهم فى مجتمعات يرفضون الانتماء اليها . فى ظل نظـــم تبـــيح لهـــم الاســـتغلال ليفرضوا سيطرتهم على الشعوب بكل الوسائل . ولم يكن غريبا ان ينتهى كل هذا الـــى أن يصـــبح اليهود فى المجتمعات الراسمالية سادة" المال" المسيطرين على ارزاق الناس من خلال البنوك . ان هذا امر جدير بالتامل لماذا يفضل اليهودى عنصر المال ليكون مجال نشـــاطه وأداة ســـيطرته كما لوكان مثله الاعلى هو" تاجر البندقية" ألأن تلك الصنعة التى احتقروها فأتقونها فى ظل الاقطاع ؟ ام لان عنصر المال هو ، فى التحليل الاخير ، مناط السيطرة فى الاقتصاد الرأسمالى؟ .. ام لان" الفائدة" أكثر ضمانا من" الربح" ؟.. قد يكون السبب واحدا او اكثر من هذا كله ، وقد يكون هذا كله مجتمعا فى تقاليد" حرفية" كما كان الامر بالنسبة الى الصناعات الاخرى فى ظل الاقطـــاع حيـــث تتجمع كل طائفة من الناس حول" حرفة" واحدة يكررونها ويتوارثونهـــا ، ولكنـــه مـــابقى بعـــد انقضاء عهد الحرفيين الا لانه لايتفق مع العنصرية القبلية الموروثة .

ذلك لان النظام الراسمالى فى نشأته كان نظاما تقدميا بالنسبة الى النظام الاقطاعى الـــذى كـــان سائدا فى اوروبا من قبله . وقد استطاعت الراسمالية ان تحول المجتمعات الاوروبية الزراعيـــة الى مجتمعات صناعية وان ترسى حضارة مادية وعملية معا حققت قدرا من التقـــدم الاجتمـــاعى يمثل هذا الجانب الايجابى البناء من آثارها . ويبدو ان الخلفية المعادية للشعوب التى كانت ثمـــرة الجمود العنصرى الذى تربت عليه اجيال متعاقبة من اليهود فى اوروبا ، حالت دون أن يجد اليهود

فى البناء الاقتصادى ومايصاحبه من تقدم اجتماعى ما" يغريهم" فاختاروا البنوك كأدوات للسيطرة على المجتمعات ولم يختاروا " المصانع" لانها أدوات البناء الاجتماعى .
وسيختارون بعد ذلك الصحافة والاعلام عندما تصبح ادوات السيطرة . وسيختارون الارهاب المسلح ويتقنون استعماله كما اتقنوا استعمال المال والصحافة والاعلام فى المجتمعات التى عاشوا فيها . كل ذلك لسبب بسيط هو انهم لايعتبرون تلك مجتمعاتهم ليسهموا فى بنائها بل يعتبرونها اعدائهم فعليهم بأمر " يهو" ان يسيطروا عليها او يخربوها . ان هذا يفسر ــ فيما نعتقد ــ الصورة الاوروبية لليهودى الجبان الذليل الخائن .. وليس الجبن وقبول المذلة والخيانة لصيقة بأى دين وعلى وجه خاص ليست واجبا دينيا على اليهود الذين يعلمهم دينهم الشراسة ويمجدالعدوان ويقيم امتيازاتهم على القوة الجسدية التى من اجلها اصطفاهم الله شعبا مختارا .
انما كان الجبن والخيانة وقبول المذلة تعبيرا عن رفض اليهودى مخاطر المغامرة الايجابية وضريبة الوطنية من اجل المجتمع المرفوض اصلا . وكان قبول المذلة تحايلا على المجتمع الاقوى " قيدوا أرجلهم وانتم راكعون" . باختصار يلتزم اليهودى قيمه القبلية الخاصة ويرفض الا لتزام بقيم المجتمع الذى يعيش فيه فيبدو شاذا فى مجتمعه لانه يرفض الاندماج فيه .ولايرى هو فى موقفه شذوذا لان الانعزال عن " الغرباء" والعداء لهم فضيلة قبلية . على أى حال ، عندما انتبهت الشعوب الاوروبية الى الاستغلال الراسمالى الذى ابتلع أو كاد المكاسب الى كانت مأمولة من وراء ثورات التحرر من الاقطاع التفتت الى تلك" الطائفة" القبلية التى تقاوم التطور الحضارى وتجسد الكراهية والاحتقار لكل من لا ينتمى اليها ، وتتآمر خفية فتصطنع لها لغات خاصة لايعرفها غيرها (البيدش فى شرق اوروبا وهى مشتقة من الالمانية واللادينو فى غرب اوروبا وهى مشتقة من الاسبانية).وقبل هذا وفوقه تمول النظام الراسمالى وتدير حركته الاستغلالية من مقاعدها فى البنوك . وكان للمستغلين الراسماليين من غير اليهود مصلحة لاشك فيها فى ان يوجهوا غضب الجماهير المقهورة بعيدا عن النظام الراسمالى الاستغلالى فاشتركوا بوسائل شتى فى تركيز الانتباه على العنصرية اليهودية ، وحملوها وحدها مسئولية الاستغلال الاقتصادى والاجتماعى الذى تعانيه الشعوب ، حتى تخرج الراسمالية بريئة . وهكذا تعاظمت موجة كراهية اليهود واحتقارهم واضطهادهم التى عرفت باسم " معاداة السامية " .

اما لماذا السامية مع ان يهود اوروبا ليسوا ساميين ، فلانهم لو اسموها " معاداة اليهودية " لفضحت دعاوى التحررية والعلمية التى تروجها الراسمالية المنافقة . وهكذا نمت مشكلة اليهود فى اوروبا من بذور عنصرية طائفية متخلفة تغذت من عفن الراسمالية المستغلة . ولم يكن حل المشكلة خافيا حتى على الاغلبية الساحقة من اليهود الذين تحرروا من البداوة القبلية واندمجوا فى مجتمعاتهم . فقد كان الحل يقتضى ان تتحرر الاقلية اليهودية من اساطيرها الخرافية وان

تتجاوز الطور القبلى لتندمج فى المجتمعات التى تعيش فيها كما فعلت الاكثرية . وكانت الاشتراكية مطروحة افكارها بقوة خلال القرن التاسع عشر تمثل الامل الاجتماعى الذى تنتهى بـــه ، والـــى الابد، كل انواع القهر .كان ذلك هو الحل التقدمى لمشكلة اليهود فى اوروبا ومشـــكلة المجتمعـــات الاوروبية بما فيها من يهود . وضد هذا الحل بالذات تحالفت أقلية يهودية متخلفة تقاوم حركـــة التطور وتتحالف مع الراسمالية الاستعمارية التى تستغل البشر جميعا بما فيهم الاقليات المتخلفـــة . وشهد عام 1897 مولد منظمتين من العنصريين اليهود . كل منهما منظمـــة " صـــهيبونية " . تحاول المنظمة الاولى افساد حل المشكلة اشتراكيا فتفشل ينجح الحل ويهـــرب العنصـــريون . وتقوم الثانية بالتحالف مع القوى الاستعماريى فتنجح الى حين فتقوم فى الارض العربيـــة دولـــة عنصرية فى سنة 1948 . اما المنظمة الاولى فهى" الاتحاد العام للعمال اليهـــود فـــى روســـيا وبولندة" (البوند) . ويلاحظ منذ البداية انها منظمة لليهود دون غيرهم فى كل من روسيا وبولندا اى بدون اعتداد بالانتماء القومى لأى من الامتـــين الروســـية والبولنديـــة لانهمـــا تعتبـــران " اليهودية" رابطة ثالثة وذلك هو مميزها العنصرى . ومن ناحية ثانية انها منظمة عمالية تســـتهدف الاشتراكية وقد اصبحت جزءا من" حـــزب العمـــل الاشـــتراكى الـــديموقراطى الروســـى" القـــائم على منطلقات فكرية ماركسية . فقد تشكل" البوند" سنة 1897 كواحدة من المنظمات العديدة التى كانت تكون ماعرف باسم الحركة الاشتراكية الديموقراطية فى شرق اوروبا .

وقد اجتمعت تلك المنظمات فى سنة 1898 واتفقت على ان تتوحد فى"حزب العمل الاشـــتراكى الديموقراطى الروسى" الذى تم انشاؤه فعلا فى المؤتمر الثانى (التأسيســـى) الـــذى انعقـــد فـــى بروكسل ثم فى لندن سنة 1903 . وفى ذلك المؤتمر التأسيسى اقترح ممثلو" البوند" ان يكون هو الممثل" للبروليتاريا" اليهودية داخل اطار" الحزب الاشتراكى الديموقراطى الروسى" الذى يجب ان يقوم على اساس فيدرالى . ولم يقبل المؤتمر رأيهم استنادا الى ان" الفيدراليـــة" تضـــعف قـــوة الحزب المركزية فانسحب ممثلو" البند" من المؤتمر ، وحدث الا نشقاق بين البلشفيك والمنشفيك ، ولكنهم بقوا اعضاء فى الحزب حتى المؤتمر الرابع (التوحيدى) الذى انعقد فـــى ســـتوكهلم ســـنة 1906 وفيه حصل" البوند" على اعتراف الحزب بوضعه الخاص كممثل للماركسيين اليهود . فى ذلك الوقت كان الحزب يضم عديدا من المنظمات و" الشلل" التى تتنازع المعرفـــة بالماركســـية وتمثيل الطبقة العاملة ، وكان" البوند" واحدا منهم ، ولم يكن البلاشفة بزعامة لينين الا شلة اخرى لم تنتصر بعد فى الصراع ا لايدولوجى الذى كان ثائرا فيما بينهم ودار اغلبه حول ماعرف باســـم" المسألة القومية" . ولما لم تكن ثمة" نظرية ماركسية فى القو ميـــة" ، وكـــان الامـــر متروكـــا للاجتهاد من خلال الممارسة لم يجد الماركسيون تناقضا بين أن يكون اليهود عنصريين وماركسيين معا . ولقد كانت الممارسة سنة 1906 تقتضى وحدة كل الماركسيين والاشتراكيين لان الثورة ضد

القيصرية كانت قد بدأت سنة 1905 لتنتهى بالفشل سنة 1907 . ولقد شن النظام القيصرى بعد فشل الثورة ، حرب ابادة وحشية ضد كل الذين حرضوا عليها أو قادوها أو اسهموا فيها او رحبوا بها .وكانت مجزرة . هاجر على اثرها جانب كبير من اليهود كما هاجر لينين نفسه . ثم يعود لينين سنة 1917 ليقود الثورة مرة اخرى وينجح . ويخوض الماركسيون ابتداء من سنة 1917 حربا اهلية شرسة ضد الثورة المضادة فتهاجردفعة اخرى من اليهود" الاشتراكيين" . اولئـــك الـــذين قدموا لنا أمثال ويزمان وبن جوريون وشاريت . ولنا هنا ثلاث ملحوظات . الاولى ماقيل مـــن ان حرب الابادة التى شنها القيصر بعد فشل ثورة 1905 كانت موجهة ضد اليهود لان القيصر كـــان من اعداء السامية ، وهو غير صحيح ، فقد كانت ثورة مضادة لتصفية قوى ثورة 1905 ولم يكن اليهود ولا" البوند" نفسه هم القوى الاساسية او الوحيـــدة فـــى ثـــورة 1905 الفاشـــلة . الملحوظة الثانية ان كل القوى الاشتراكية التى هاجرت بعد فشل الثورة او نفيت الى مجاهل سيبيريا لم تتوقف عن الكفـــاح ولـــم تلبـــث ا ن اجتمعـــت فـــى ســـاحة ثـــورة 1917 المنتصـــرة . الا العنصريون اليهود من اعضاء البوند . فما ان غادروا ارض" الـــوطن" حتـــى نســـوا الماركســـية والاشتراكية والطبقة العاملة وتحالفوا مع القوى الاستعمارية . الملحوظة الثالثـــة ان الكثـــرة مـــن اليهود المتحررين من العنصرية الذين بقوا فى الاتحاد السوفبيتى بعد نجاح الثورة وأســـهموا بـــى بناء الاشتراكية قد اندمجوا فى مجتمعهم بيسر ذى دلالة قوية على ان مشكلة اليهود فى اوروبا هى مشكلة العنصرية والاستغلال وليست مشكلة افتقاد ارض يعيش عليها اليهود . فما ان يتحرر اليهود من التخلف القبلى ويتحرر المجتمع من الاستغلال الراسمالى حتى تنتهى المشكلة .

وليس ادل على هذا من ان الاتحاد السوفيتى يضم جمهورية خاصة باليهود (بيروبيجان) لـــم تعـــد عنصرية يقيم غير اليهود فيها كما يقيم اليهود فى كل مكان من الاتحاد السوفيتى بدون ان توجـــد مشكلة . وهكذا افسدت العنصرية اليهودية على اصحابها افضل الحلول لتى قدمتها اوروبا لمشكلة اليهود . كيف اذن كان العنصريون اليهود ماركسيين واشـــتراكيين . وكيـــف انهـــم فـــى الارض المغتصبة يقيمـــون المـــزارع الجماعيـــة ، ويعيشـــون فـــى جماعـــات متماســـكة ، وينتهجـــون الاسلوب الجماعى فى الانتاج ؟ .. كيف يتفق ان يكونوا عنصريين مايزالون فى مرحلة الطـــور القبلى وهم ـــ فيما يبدو ـــ ماركسيون او اشتراكيون ؟.. هذه هى الخدعـــة التـــى لايمكـــن اكتشافها من منطلق مادى على ضوء تطور اساليب الانتاج . ولكنها تصبح واضحة اذا نظرنا اليها من منطلق انسانى قومى" ينظر الى المجتمعات خلال حركتها الجدلية التى لاتتوقف عن الماضـــى من المستقبل" . ان بين المجتمع القبلى العنصرى اليهودى والمجتمع الاشتراكى تقاربا فى اســـلوب الانتاج الجماعى . ولكن علاقات الانتاج الجماعى مرتبطة بالطور الذى يمر به المجتمع ولاتكـــون تقدمية بذاتها . والماركسيون اول من يجب ان يعرف هـــذا فعنـــدهم يبـــدأ التطـــور الاجتمـــاعى بالشيوعية الاولى وهى اكثر مراحله انحطاطا وينتهى بالشيوعية الاخيرة وهى اكثر مراحله تقدما .

وفى كليهما تتشابه علاقات الانتاج الخالية من الملكية الخاصة ومع ذلك لاينخدع احد فى الفــارق الحضارى بينهما . فاذا كان اليهود فى الارض المغتصبة يقيمون المزارع الجماعية ويعيشون فى جماعات متماسكة فلأن ذاك هو اسلوب الانتاج القبلى . ويمكن التمييز بين ماذا كان اسلوبا قبليــا او اسلوبا اشتراكيا من خلال موقف اصحابه من المجتمعات الاخــرى . فعنــدما يكــون مصــحوبا بالانطلاق الداخلى والعداء للغير يكون اسلوبا قبليا متخلفا حتى عن اسلوب الانتاج الفردى وعنــدما يكون انسانيا سلميا فهو متجاوز اسلوب الانتاج الفردى الى الاسلوب الجماعى الاشتراكى . طبقــا لهذا القياس لايكون فى شك من حقيقة العلاقات الجماعية السائدة فــى الارض المغتصــبة ، انهــا القبائل اليهودية قد انتقلت من " الجيتو" الى ارض فلسطين لتعيش ذات علاقتها القبلية المتخلفة : التضامن بين افراد القبيلة والعداء للاخرين . والكابوتز المسلح هو القبيلة التى ماتزال تعيش فــى القرن العشرين وفى افريقيا الاف من هذه المجتمعات القبلية تعيش معا حياة اكثر جماعيــة مــن اليهود فى فلسطين ولايقول أحد بأنها مجتمعات اشتراكية ولايغير من هذا ان المجتمع القبلى فــى اسرائيل يستعمل أرقى أدوات الانتاج تطورا فى هذا الزمان . فمن قبل تعلمت قبائل الهنود الحمــر استعمال ارقى ادوات القتال فى زمانها ومع ذلك ظلت فى طورها القبلى .

وتستعمل كل الشعوب ــ الان ــ أدوات انتاج متشابهة فى تقدمها الفنى ومع ذلك تختلف حضــارة وتطورا . لان " كما يكون الناس يكون تطورهم الاجتماعى" ثم ان " التفرقة العنصرية " المعتــرف بوجودها فى مجتمعات تبلغ فيها أدوات الانتاج أرقى ماوصل اليه العلم ليست الا المميــز القبلــى للمجتمعات التى تعيش فى ذلك الطور المتخلف وتستعمل أدوات القرن العشرين . ثم ان لدينا فــى الوطن العربى دويلات من أسر قبلية تعيش على ماينتجه الامريكيون . ان الجماعية ــ اذن ــ هى التى كانت تغرى كثيرا من العنصريين اليهود اعتناق الماركسية . ولكن الماركسية ليست عنصرية . وعندما تتستر العنصرية بالماركسية يكون على كل اشتراكى أن ينظر الى المجتمعات نظرة أشمل من أدوات الانتاج وعلاقاته. عندئذ سيتبين بوضوح ان العنصريين فى الارض العربية المغتصــبة يعيشون فى الطور الاجتماعى اللاحق للشيوعية البدائية وليس الطور الاجتماعى الســابق علــى الشيوعية الاخيرة وانهم ــ بالتالى ــ عندما يتطورون سيدخلون الطور الرأسمالى .

ويقدم تطورهم منذ سنة 1948 حتى الان دليلا واضحا على انهم يدخلون مرحلة الفردية . وآيتهــا الكثرة غير المتناسبة مع عددهم من الاحزاب وهو مانلاحظه فــى مراحــل الليبراليــة الاولــى ــ ويدخلون مرحلة الرأسمالية وآيتها التحالف الذى يزداد يوما بعد يوم مع الراسمالية الغربية وهــذا لاينفى ان جماعات من الراسماليين المتحررين من القبيلة اليهودية تعيش فى اسرائيل او تحــالف الصهاينة خاصة منذ أصبحت لهم دولة لتستغل العنصرية الصهيونية ودولتها معا . ولكن أن يكون فى الارض المغتصبة عنصرى واشتراكى معا ، أوأن يعيش الاشتراكيون فى ظل الروابط القبليــة التى نسجتها الاساطير والخرافات ، فتلك مقولة لاتستحق الا السخرية .. المهم أن الاشتراكية فى

الاتحاد السوفيتى قدمت للعنصريين اليهود أفضل الحلول التقدمية ليغادروا الطور القبلى. قدمت لهم الارض والامن وفرص الانتاج وعدالة التوزيع فرفضوها ... لماذا ؟.. هنا يـأتى دور المنظمـة الثانية التى ولدت عام 1897 أيضا وتحالفت مع القوى الاستعمارية . انها المنظمة " الصهيونية " التى تأسست فى مؤتمر بال وحددت هدفها بأنه اقامة دولـة لليهـود فـى فلسـطين . وجمعـت العنصريين اليهود فى اوروبا الغربية . وهى المنظمة التى سينضم اليها أصحاب تجربة " البونـد" والتى ستحقق نجاحا مطردا فى مخططاتها فتقيم دولة اسرائيل فى سنة 1948 . انها المنظمة التى جمعت شتات " القبائل" اليهودية لتقيم منها دولة قبلية على أرض فلسطين . وأول سـؤال تطرحـه تلك المنظمة علينا هو لماذا نجحت ؟.. وقبل أن نجيب ينبغى ان نذكر ان المجتمعـات الاوروبيـة بالرغم من تقدمها ماتزال عامرة بالجماعات المتخلفة التى لم تتجاوز الطور القبلى . لانضرب قبائل الغجر مثلا . بل نضرب مثلا قبائل اللابيين الذين يعيشون فى السويد والنرويج وفنلندا وروسـيا . ان هذه ظاهرة متكررة فى كل الامم ولنا منها نصـيب لاينكـر . ومصـير كـل هـذه الجماعـات المتخلفة ان تدك تطور مجتمعاتها . اذن ، فمهما تكن أساطير العنصرية اليهوديـة كـان التطـور الاجتماعى فى اوروبا كفيلا فى النهاية بأن ينتزعها من روابطها القبلية لتلحق بمجتمعاتها ، لـولا أن " قوى" اخرى كان لديها دور تبحث له عمن يؤديه تلك هى القوى الاستعمارية..

ففى اواخر القرن التاسع عشر كان الاستعماريون قد استولوا على العـالم كلـه وبـدأت مهمـة المحافظة على مواقعهم فيه وكان من أهم وسائل المحافظة على تلك المواقع فـى الهنـد وآسـيا الاحتفاظ بقناة السويس تحت سيطرة الاستعماريين وفى خدمتهم على وجه مستقر ودائم . ولم يكن ذلك ممكنا الا اذا حالوا دون ان تقوم فى الوطن العربى دولـة واحـدة قـادرة علـى ان تقطـع الطريق الاستعمارى الحيوى . وقد عرض الامر على مؤتمر استعمارى انعقد فى لندن سنة 1907 ليوصى بما يراه كفيلا بالمحافظة على السيطرة الاستعمارية . وقد قدم عدة توصيات كان نصـيب الوطن العربى منها مايلى :" ان اقامة حاجز بشرى وغريب على الجسر البرى الذى يربط اوروبـا بالعالم القديم ويربطهما معا بالبحر الابيض المتوسط بحيث يشكل فى هذه المنطقة على مقربـة من قناة السويس قوة معادية لشعب المنطقة ، وصديقة للدول الاوربية ومصـالحها هـو التنفيـذ العملى للوسائل والسبل المقترحة ".

وفى سنة 1937 نشر فى فرنسا كتاب تحت عنوان " الله اكبر " يتضمن تقريرا كان مقدما الى احد قادة الحركة الصهيونية فى النمسا هو الدكتور فولفجانج فايست يقول كاتبه " ان خلاصة الاسـباب الجدية للكفاح من اجل الارض المقدسة هو موقعها الاستراتيجى وتأثيره فى مستقبل المنطقة . فلو عادت فلسطين الى دولة عربية موحدة تضم مصر لقامت هناك قوة عربيـة مسـلحة تسـتطيع ان تتحكم فى قناة السويس والطريق الى الهند . اما اذا ظلت فلسطين مستقلة او اصبحت دولة يهودية ، فانها ستقوم عقبة فى سبيل انشاء هذه الدولة الكبرى حتى لو تمت الوحدة بين دولـة عربيـة

واخرى على جانبى فلسطين — ان دولة صغيرة" حاجزة" تقـوم علـى 100,000 كيلـو متـر مربع على ضفتى نهر الاردن ستحمى كل دولة عربية ضد تدخل أية دولـة عربيـة اخـرى.. ان توازن القوى حول قناة السويس يتوقف اذن على استقلال فلسطين عن العالم العربـى . يتوقـف على دولة فى فلسطين تكون مثل سويسرا عند ملتقى القارات الثلاث .

ان هذا الا ستقلال يتفق تماما مع طموح الاستعمار اليهودى ، ذلك لان اليهود وحدهم هـم الـذين ستون لهم مصلحة فى هذا الاستقلال وليس العرب . اذ ان هؤلاء سيكونون من الدعاة المتحمسين للاندماج فى دولة عربية كبرى". وهكذاحالت القوى الاستعمارية دون ان تذوب العنصرية اليهودية فى حركة التطور الاجتماعى فى اوروبا ، وغذت تلك العنصرية بأدوات القـوة وسـهلت لهـا ان تغتصب أرض فلسطين لتكون هناك حارسة لقناة السويس وحائلة دون الوحدة العربية . وضـمت صفحات التاريخ أكبر كذبة شهدها التاريخ . اليهود يغتصبون أرض فلسطين فرارا مـن اضـطهاد الدول الاوروبية ولكن بمساعدة الدول الاوروبية وخدمة لمصالحها .. أبعد مايكون عـن الحقيقـة اذن مايقال من ان اليبهود ماجاءوا الى فلسطين الا لانهم يفتقدون وطنا يعيشون فيـه . انمـا جاءوا ليغتصبوا الارض العربية ويقيموا دولة حارسة على المصالح الاستعمارية تحـول دون ان تحقق الامة العربية كل ماهى قادرة عليه من تطور اجتماعى فـى ظـل دولـة الوحـدة . جـاءوا بمساعدة القوى التى لاتريد لهذا الشعب ان يعيش بما يملك . لم يجيئوا لانهم يهـود . ولا لانهـم اشتراكيون ولا لانهم يريدون الاعتداء على دولة عربية معينة ، ولا لان المجتمع الدولى كان فـى حاجة — حتى يسود قانونه — الى وجودهم فى فلسطين . بل ليقيموا على الارض العربية مخفـرا مسلحا يحمى تخلفها ويمنع وحدتها . وهو تاريخ لم يعد فى حاجة الى وثائق بعد ان تطور التـآمر مع المانيا القيصرية الى تواطؤ مع الامبراطورية البريطانية الى تحالف يفخر به أصـحابه بـين الصهيونية والامبريالية الامريكية . .. هذى هى الصهيونية كما نراها من الموقف القومى وطبقـا لنظريتنا القومية . ولو كنا قد استوعبنا نظريتنا هذى لادركنا من أبعاد مشكلة فلسطين ومخاطرهـا المقبلة أكثر مما يدرك سوانا . انها نذر على اكبر قدر من الجدية تنذرنا بها نظريتنا القومية التى علمتنا ان " الامة تدخل مرحلة التكوين القومى باستقرار الجماعات القبلية (تحمل كل منها لغتهـا وثقافتها وتقاليدها) على ارض معينة ومشتركة وبها تحل مشكلة الهجرة وتتميز بالاستقرار على الارض عن الطور القبلى . ثم تبدأ فى التكوين وتحدد خصائصها خلال مواجهة المشكلات المشتركة والمشاركة فى حلها" . اذن، ولينتبه الشباب العربى ، ان الصهيونية تحاول منذ 1948 أن" تصنع امة" من اشتاتها القبلية بأن تستحوذ علىارض تكون خاصة بها . ولابد لكى تنجح من أن " تستقر" على الارض و" تختص" بها فترة زمانية كافية تبنى فيها حضارتها الخاصة وتصبح بها امة . وقـد كان عم 1948 هو البداية ولكن لزمان أمامهم مايزال طويلا ، فان الامم لاتتكـون فـى عشـرات السنين فلا تجزع. ان الولايات المتحدة الامريكية ذاتها ماتزال ، منذ الاسـتقلال، أمـة فـى دور

التكوين . ولكن الصهاينة دائبون على تنفيذ مخططاتهم ، ولقد اغتصبوا الارض ولكن لم يستقروا عليها . وعلى ارضها يعيش ثلاثة ارباع مليون عربى واكثر فهى ليست خاصة بهم داخليا ، وقد قطعت معركة 1967 كل استقرار سابق .ولكنهم على اى حال استطاعوا أن يحيوا لغتهم الميتة فأصبحت لهم لغة مشتركة . ولو سمح الشعب العربى للصهاينة بالاستقرار على الارض حتى تكون خاصة بهم ويبنوا عليها حضارة خاصة ، فانهم سيصبحون امة ، شاء الشعب العربى أم لم يشأ ، لان فعالية قوانين التطور حتمية ولاتتوقف على رغبات أحد ، والماضى يمتد تلقائيا فى المستقبل اذا لم يتدخل الناس ايجابيا لتغييره ، ويوم أن يصبح للصهاينة امة فى فلسطين لن يستطيع أحد ان ينتزعها منهم مرة اخرى , لعل هذا ان يكون واضحا . فانه يحدد لنا التزامات عينية داخل لارض المغتصبة وخارجها حتى قبل ان تزول دولة اسرائيل . هذا مانقوله نحن .

فماذا تقول الصهيونية عن نفسها ؟..

اذا كنا سنعود الى الاساطير الخرافية مرة اخرى فلعل هذا لايصدم المعجبين" بالتقدم الحضارى" لاسرائيل ذلك لاننا لانسند الى الصهاينة غير مايقولون . ولانستند من بين من يقولون الا الى مايقوله الصهاينة العلماء الماديون الذين لانظن انهم يرعون شرائع الدين اليهودى . انهم كما لا بد نتوقع ــ لايقولون ان الصهيونية حركة عنصرية قبلية متخلفة . بل يقولون انها حركة قومية . والصهيونية هى ذاتها القومية . اما الامة فهم اليهود فى كل انحاء الارض ومن جميع الاجناس والالوان . ثم انهم لاينكرون ان ليس لليهود لغة واحدة وانهم لم يعيشوا منذ عشرات القرون على ارض واحدة ، ولم يشتركوا فى بناء حضارى واحد . كل هذا لاينكرونه . ولكنه عندهم غير لازم لتكون الامة امة . فالنظرية الصهيونية فى الامة والقومية تقوم على اساس أن وحدة الثقافة ، والتاريخ الثقافى هما المميز الاساسى للامة . فاذا قيل ان اليهود المثقفين قد شاركوا فى كل ثقافات العالم ، وكل منهم اسهم بقدر ماستطاع فى ثقافة مجتمعه الذى يعيش فيه ، قالوا ان العبرة بالاتصال التاريخى للثقافة وهذا متوافر فى الثقافة الدينية لليهود منذ الشتات الى الان ، فهم ــ اذن ــ امة . هل هى امة ممتازة ؟.. لا. ان تعبير" شعب الله المختار" هو للتمييز وليس للامتياز . فليكن.. فليس لكل هذا من آثار فيما يعنينا فى هذا الحديث . اذ أن الذى يعنينا هو عنصر الارض . ان كنتم امة الان ، وكنتم دائم امة ، وانتم تعيشون فعلا على الارض وسط مجتمعاتكم فلماذا تتركون" اوطانكم"؟ .. لان تلك المجتمعات لم تقبلنا قط ، انها رفضت انتماءنا اليها وماتزال ترفض وقد تعرضنا فى تريخنا الطويل لكل انواع الاضطهاد الظاهر ومايزال هذا الاضطهاد مستترا . حتى الذين اندمجوا ــ كما يقال ــ فى مجتمعاتهم يشعرون بالغربة واذا كانوا يرفضون الانتماء علنا الى الحركة القومية (الصهيونية) فلانهم يخشون ان ينفجر العداء الكامن ضدهم فهم يساعدونها خفية او علنا تبعا للظروف . واذا كانت الحركة الصهيونية لاتضم الا القلة

من اليهود فلان تلك هى القلة الواعية انتماءها القومى فهى الطليعة المنظمة التى تقود الحركـــة القومية ، وآجلا أو عاجلا، ، سينضم اليها كل اليهود .اذا كان الامـــر كـــذلك فلمـــاذا لاتقـــاومون الاضطهاد فى مجتمعاتكم ولو بالتحالف مع باقى المضطهدين هناك بدلا من الفرار ؟.. لافائـــدة ان الحل الوحيد ان تكون لنا ارض خاصة نقيم عليها مجتمعنا ونعيش فيها حياتنـــا . لمـــاذا اذن لـــم تقبلوا الاقامة فى الارض الخالية لتى عرضت عليكم فى اوغنـــدا ؟. لاننـــا نريـــد ارض فلســـطين ؟ لماذا فلسطين بالذات ؟.. هنا يعود المثقفون ، العلماء، المتحضرون ، الماديون، التقـــدميون الى الاساطير . اننا نلخص ماقالته نخبة مختارة من هؤلاء جميعا ونشره سارتر فى عـــدد خـــاص (991صفحة) من مجلة "الازمنة الحديثة"فى يونيو 1967 . قالوا ان الثقافة اليهودية التـــى هـــى مناط التكوين القومى للامة اليهودية قائمة على عدة اساطير دينية وميتافيزيقية . هـــذا صـــحيح . ولسنا نحتج بصحتها العلمية وانما نحتج بالاثار الاجتماعية التى احدثتها تلك الاساطير فى الجماهير اليهودية وصاغت بها تكوينها الاجتماعى . فمثلا تلقى اليهود من الله وعدا بأن تكـــون لهـــم أرض فلسطين . هكذا جاء فى التوراة" لنسلك اعطى هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبيـــر نهـــر الفرات" (سفر التكوين ، اصحاح 15 ، اية 18) . ومنذ ذلك الحين انقضت عشـــرات القـــرون . لاننكر اننا خلالها لم نكن نعيش على أرض فلسطين ، وان شعبا عربيا هو الذى كان يعيش عليها ، ولكن هذا لايغير من الواقع شيئا . والواقع انه طوال تلك القرون يعيش اليهود فى الشتات على أمل العودة الى ارض" الميعاد" كأثر من آثار ايمانهم الدينى بأن تلك هى الارض التى وعدهم الله بها . وبصرف النظر عن الجانب اللاهوتى فان الاثر الاجتماعى كن ومايزال قائما يصوغ حيـــاة اليهـــود نفسيا واجتماعيا ويرددونه فى اجتماعاتهم وفى صلواتهم ويذكرون به فى كتبهم ويقوم محورا فـــى ثقافتهم القومية : ان ارض تمتد من الفرات الى النيل هى ارضهم . هذا هو الذى ابقاهم امـــة لـــم يذوبوا فى الامم الاخرى بالرغم من توالى الاجيال وهم فى الشتات وهذا هو الجانـــب المهـــم مـــن الاسطورة لاننا قد نكذب الاسطورة ولكنا لانستطيع ان ننكر او نتجاهل اثرها الاجتماعى . وقد اخذ علينا الناس ماقاله بعضنا من ان فلسطين ارض بلا شعب فلابد من ان تعطى لشعب بلا أرض ولـــو فهمونا لما أخذوا علينا مانقول . فالعبرة عندنا ليست بالصلة المادية لتى تتمثل فى اقامـــة شـــعب" غريب" فى ارضنا ولكن العبرة بالصلة الروحية بيننا وبين الارض . ومهما تكن الارض عـــامرة بمن يقيم فيها فانها خالية بالنسبة الينا الى ان نعود اليها نحن اصحابها . ان تلك الصلة لم تنقطع ابدا فلم ينس اى يهودى ارض فلسطين والعودة اليها ولايقال لنا ان ذلك ايجابا ذاتيا من ناحيتنـــا فان القبول الذى تتم به الصلة قد جاء من الارض ذاتها فلو راجعنا التاريخ لتبين لنا على وجـــه لايمكن انكاره حتى لو لم يستطع العلم اثباته ان ارض فلسطين لن تمنح كل عطائها الا لنا نحـــن اليهود الموعودين بها وهكذا لن تستطيع الامة اليهودية ان تسهم بكل ماهى قـــادرة عليـــه فـــى التقدم الحضارى الا على ارض فلسطين ، ولاتغنى عنها ارض اخرى كما ان ارض فلســـطين لـــن

تقدم كل ماتنطوى عليه من عطاء لا للشعب اليهودى ، ولايغنى عنه شعب آخر . انما تثور المشكلة لان الدول العربية لاتريد ان تقبل المهاجرين من ارضنا فى اراضيها الواسعة التى هى فى اشد حاجة الى مزيد من البشر . وبدلا من هذا تبقى عليهم فى المخيمات ،وتستعملهم " كورقة سياسية" فى مناوأة دولتنا لانها لاتريد ان تعترف بوجودنا فى حدود امنة وفى ظل علاقة جوار نتبادل خلالها الخبرات لنحقق التقدم الاجتماعى فى" منطقتنا" . وماهى حدود دولتكم طبقا لدستورها؟ صمت مطبق .لان اسرائيل" الدولة المتحضرة".. تستغنى بالتوراة عن الدستور . وهى دولة مسالمة فلا تريد ان ترسم لذاتها حدود اكتفاء بما نقلته على جدار الكنيست من اساطير التوراة" من الفرات الى النيل" . اما عن تهمة خدمة المصالح الاستعمارية والتحالف مع الامبريالية . فان الصهيونية تتحالف مع من يحالفها مرحليا ولكنها لاتخدم الا غايتها ولولا عند الدول العربية ورفضها الاعتراف باسرائيل وتهديدها بالقاء اليهود فى البحر لما استمر تحالف اسرائيل مع الامبريالية . فما على العرب الا ان يعترفوا باسرائيل ويقبلوا التعامل معها حتى تستطيع" القوى التقدمية" فيها ان تحرر اسرائيل من ذلك الحلف لتتحالف مع القوى التقدمية العربية فى سبيل مستقبل اكثر تقدمية للجميع . هذه الخلاصة الاخيرة منقولة مما كتبه الذين يدعون ألآِشتراكية هناك. هذا مايقوله الصهاينة" العلمانيون" بعد عشرين عاما من قيام اسرائيل على الارض لعربية . اما مايقوله الصهاينة المتدينون فهو اقل علما بكثير ومع هذا فهم لايختلفون جميعا فيما يهمنا.. ومايهمنا هنا هو ان نعرف نوايا ومخططات الصهاينة بالنسبة الى ارضنا العربية . فكلاهما يرى: أولا: ان اليهود فى جميع انحاء العالم أمة . وان الصهيونية قومية . وان الحركة الصهيونية حركة قومية غايتها استرداد أرضها الخاصة من الشعب العربى ، ويكون علينا أن نستنتج انهم يريدون الارض خالية من البشر لانها لازمة لاقامة الشعب اليهودى . وهذا مارسوه فيما اغتصبوه من أرض حتى الان . وهم يريدونها لاستقبال الشعب اليهودى كله الذى يبلغ 12 مليونا . وهذا مأرسوا قاعدة ممارسته بقانون" العودة" الشهير الذى يمنح كل يهودى الجنسية لاسرائيلية بمجرد الاقامة فى اسرائيل . وبالتالى فهم يريدون أرضا خلية من البشر تتسع لسكنى الشعب اليهودى كله فهى لابد أن تمتد الى أضعاف أضعاف أرض فلسطين . وهذا يمارسونه بقدر مايستطيعون . ولما كانت الارض التى يريدونها ليست محددة بقدرتها على استيعاب الصهاينة الذين يهاجرون الى اسرائيل ولكن محددة على اساس انه" الوطن القومى" للامة اليهودية فان حدودها لابد من أن تكون مطابقة " للحدود التاريخية" لارض اسرائيل . وهذا مايمارسونه مرحلة مرحلة ولن يتوقفوا دونه قط طالما كانوا قادرين . نريد أن نقول انه طبقا لذات" النظرية" الصهيونية التى يلتقى عليها الصهاينة ويلتزمون بها فى الممارسة ويحتكمون اليها عند الاختلاف ويثيرون تحت لوائها مشكلة فلسطين ، فان مشكلة فلسطين ، كما ينبغى ان نفهمها حتى من نوايا اعدائنا، هى مشكلة أرض عربية يريدونها خالية من الفرات الى النيل. ثانيا : ان الطرف الاصيل الذى تصارعه ليس هو اسرائيل

الدولة ، بل هو الصهيونية المنظمة . وليست اسرائيل الا الاداة الرسمية المنفذة لارادة المنظمة الصهيونية . وبالتالى لاينبغى ان نعول كثيرا على القرارات والمواقف لتى تأخذها اسرائيل والتى قد تضطر اليها تحت تأثير المجتمع الدولى ان تلك القرارات قد تلزم دولة اسرائيل لتى كانت قائمة يوم أن قررتها ولكنها لاتلزم المنظمة الصهيونية التى لن تكف عن محاولة اقامة اسرائيل اخرى . اسرائيل الكبرى... ثالثا : ان الحركة الصهيونية ذات منطلقات خاصة وغايات خاصة وأساليب خاصة . ولكنها بحكم تخلفها القبلى تفضل القوة وتمجد العنف فهى عدوانية من حيث هى عنصرية .ومع هذا فمما يدخل فى نطاق اساليبها ان تتحالف مع القوى التى تتفق معها فى الغايات ولو مرحليا .وهى القوى العنصرية ، او الاقليمية، او الاستعمارية طبقا لما يخدم غايات الصهيونية . ولكمها تظل مستقلة بمنطلقاتها وغاياتها عن تلك القوى ومستعدة دائما الى الاحتكام للسلاح . فاذا كانت قد تحالفت مع القوى الاستعمارية المتفوقة ، مع المانيا أولا ثم مع بريطانيا ثم مع الولايات المتحدة الامريكية فلأن المانيا كانت ذات مطامع استعمارية فى الشرق العربى لم يمنعها منها الا الاستعمار البريطانى الذى حلت محله ــ بالاتفاق ــ الولايات المتحدة الامريكية بعد الحرب الاوروبية الثانية . ان العداء للامة العربية وتحررها ووحدتها وتقدمها هو الذى يجمع بين الصهيونية وحلفائها فىحلف تلتقى فيه المصالح ويتم من خلاله تبادل الخدمات ولكن يبقى لكل حليف قدر من استقلاله . فلا الصهيونية أداة للاستعمار الامريكى ولا الاستعمار الامريكى أداة للصهيونية ، انهما عدوان متحالفان ضد عدوهما المشترك : الامة العربية . وهذا الحلف يتسع لكل قوى أخرى بقدر ماتشترك معه فى غاياته حتى لو كانت قوى عربية لها منطلقاتها الخاصة ولها غاياتها الخاصة ولكن تلتقى مع الصهيونية ــ مرحليا ــ فى موقفها المعادى لحرية الامة العربية ووحدتها القومية وتقدمها الاجتماعى. فهل يرى الذين يشوهون مشكلة فلسطين الى أى منزلق ينزلقون ؟.. ماالحل؟..

الحل القومى:

استرداد الارض العربية للشعب العربى ، كل الارض العربية لكل الشعب العربى . أما كيف فهذا سؤال يتصل بالاسلوب وسنعرف الاجابة عليه فيما بعد . المهم هنا أن ندرك بأكبر قدر من اليقين بأن حل مشكلة فلسطين هو استرداد الارض المغتصبة من قبضة الصهيونية التى نسميها" اسرائيل" واعادتها الى الشعب العربى . لو بقيت للصهيونية دولة ولو فى" تل أبيب" وحدها فان المعركة لن تكون قد انتهت لان منظمة القوى المعادية ماتزال هناك فى اوروبا والولايات المتحدة وأطراف كثيرة من الارض . ومن تل أبيب ستعود فتنتقض . هذا بالاضافة الى أن كل ذرة تراب من الارض العربية هى ملك للشعب العربى لابد من أن تسترد . وعندما تسترد الارض ، كل الارض . ستحل مشكلتنا ومشكلة اليهود معا . نسترد نحن أرضنا ونضعهم هم امام الحل

الصحيح لمشكلتهم . ولاشك أنهم عندما يثبت لهم بكل اسلوب مناسب ان الصهيونية حركة فاشلة سيعيشون فى مجتمعاتهم ويندمجون فيها ويتطورون . وهكذا يكون استرداد الارض العربية هو الحل التقدمى الصحيح لمشكلة فلسطين المغتصبة ومشكلة اليهود الهاربين من مجتمعاتهم . أليس هذا تبسيط للامور؟.. ان فى اسرائيل جيلا سابقا على قيام الدولة لم يعرف له وطنا الا فلسطين . وفى اسرائيل جيل ولد بعد قيام الدولة لايعرف له مجتمعا الا اسرائيل . فما الذى سيكون من أمر هؤلاء فيما لو استردت الارض المغتصبة ؟؟كثيرون يشغلون أنفسهم بالاجابة على هذا السؤال كما لو كان سؤالا جادا . وينفعلون فى الحديث ويسودون الكتب ويقترحون" فلسطين الديموقراطية " كما لو كانت الصهيونية قد انهزمت ودولتها قد زالت ، وعاد الاباء الى اوطانهم وبقيت مشكلة الجيل الجديد من أبنائهم ؟ .. ومع ذلك فعلينا أن نجيب . فلعل للسؤال وجها جادا نراه من الموقف القومى ولايراه السائلون . بمجرد أن نكون قوميين نتطهر تماما فكريا وحركيا ، من خطيئة التمييز الدينى أو العنصرى ونسترد كامل انسانيتنا ، ويعود الينا الوضوح فى رؤية المشكلات ، اية مشكلات، وحلولها الصحيحة . عندئذ سننسى"حتما" كلمة يهودى ونتحرر نحن اولا من رد فعل عنصرى تحاول أن توقعنا فى شباكه المضللة الحركة الصهيونية فتجرنا من حيث لاندرى الى منطلقاتها ومواقفها ، ولو فعلنا لرأينا الحل القومى واضحا صريحا. فالقومية لاتقبل الاستقلال الاقليمى لفلسطين عن الامة العربية .

وفلسطين الاقليمية فاشلة من الان فى حل مشكلة الاقامة فيها . فهى" دويلة" يواجه فيها مليونان من المجنى عليهم مليونين من الجناة حول جسم الجريمة الدار المهجورة وقد سكنت والارض المغتصبة وقد زرعت والاموال المنهوبة وقد اصبحت اموال الاخرين ثم يقال لهم لاتذكروا ماكان وعيشوا" ديموقراطيين" كأن الديموقراطية تعويذة سحرية تطهر النفوس بأمر من القائلين . القومية لاتقبل الا دولة الوحدة ودولة الوحدة أكثر رحابة من فلسطين . وفى دولة الوحدة مكان لكل الذين يريدون أن يعيشوا آمنين . وسيكون من شأن دولة الوحدة ان تعترف بالمواطنة او بالاقامة لمن يريد ان يقيم فى رحابها فمن لا ينتمون اليها أصلا كما تفعل كل الدول بدون أن يكون فى هذا مساس بسيادتها . هذا من ناحية . ومن ناحية اخرى فان للامة العربية أبناء من اليهود فى فلسطين وفى كثير من الارض ، اولئك العرب اليهود . انهم لسبب او آخر يحملون الهوية الاسرائيلية أو هويات اخرى أجنبية . وهم لسبب أو لاخر قد انتقلوا الى فلسطين أو غادروا الوطن العربى الى اماكن أخرى .

وبعضهم مجندون فى المنظمة الصهيونية او فى قوات اسرائيل المسلحة . كل هؤلاء عرب بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية . واسلاف كل هؤلاء عاشوا عربا واسهموا بما استطاعوا فى تطوير امتهم العربية . ولكل هؤلاء حق قومى فى أن يعيشوا فى رحاب امتهم وعلى أرض وطنهم

العربى" المشترك" فى فلسطين أو فى غير فلسطين . ولكل هؤلاء حق فى أن تكون دولة الوحدة الاشتراكية الديموقراطية دولتهم القومية التى تحميهم ضد التعصب وتوفر لهم الامن وأسباب لتقدم الاجتماعى . وكل هؤلاء مطالبون بأن يعبروا عن ولائهم لامتهم وأن يرتفعوا بوعيهم الى مستوى المسئولية القومية وأن يعرفوا أن أرض فلسطين هى جزء من وطنهم العربى الكبير وان لهم حق الاقامة فيها سواء كانو فيها من قبل او وافدين اليها من أقطار عربية أخرى وأن من حقهم ان يعودوا اليها أو الى أى مكان فى الوطن العربى ان كانوا قد غادروا أرضهم العربية . بل انهم فى القومية سواءمع اخوانهم العرب الذين أكرهوا على مغادرة فلسطين لافضل لأحد منهم على الاخر الا بقدر مايجسد فكرا ومسلكا ولاءه القومى لأمته العربية . حتى الذين تورطوا منهم فوجدوا أنفسهم فى مواقع الخيانة لامتهم ، ويقتلون اخوتهم العرب طاعة لسادتهم الصهاينة ، فان جزاءهم سيكون معادلا لما كان لهم من حرية الاختيار وعلى مايكون لهم من موقف يختارونه فى الصراع العربى ضد الصهيونية المغتصبة . وقد تغفر لهم أمتهم كل ماتقدم لو حرروا أنفسهم من سيطرة الغاصبين الاجانب لجزء من وطنهم العربى فأسهموا فى استرداده وتحريره . ولكنهم فى كل الاحوال لن يكرهوا على مغادرة الارض العربية ولن يفتقدوا رعاية دولة الوحدة .

هكذا نرى الحل من الموقف القومى من موقف تتسق صلابته وانسانيته مع انتمائنا الى امة عريقة ذات قيم حضارية لايمكن أن يتدنى ابناؤها الى القيم القبلية التى تجسدها الصهيونية . اننا امة وهم مجتمع قبلى فلا ينبغى لنا أن نفهم المشكلات كما يفهمون أو أن نحلها كما يريدون أوأن تكون مواقفنا ردود أفعال لمواقفهم . اننا ، باسم القومية العربية نصر على معاملة اليهود العرب معاملة عادلة فى وطنهم العربى وماعلى الامم الاخرى الا أن توفى بمسئولياتها فتحمى ابناءها اليهود من التعصب ضد السامية . ان نظريتنا القومية ، اذا ، تحملنا مسئولية تحرير العرب اليهود من القهر العنصرى المفروض عليهم فى أرض فلسطين . ومسئولية عودة اليهود العرب الذين غادروا وطنهم العربى وتعويضهم عن أى عسف لم يحترم انتماءهم القومى للامة العربية . أما الذين خانوا اوطانهم فهجروها وجاءوا غزاة للوطن العربى فلا مكان لهم فى الارض العربية . وعليهم أن يلحقوا بامهم حيث كانوا . ولسنا مطالبين ان ندفع لهم ثمن الخيانة اوأن نقدم لهم مكافأة على العدون . لسنا مسئولين على أى وجع عن ار ضاء التعصب الاوروبى ضد اليهود أو التعصب الصهيونى ضد البشر جميعا ، بأن نقيم للصهيونية دولة فى أرضنا سواء فى فلسطين أو حتى فى الربع الخراب من الصحراء القاحلة . لا أحد يملك هذا ولا أحد يستطيعه. ومشكلة فلسطين هى النموذج لكل مشكلة اغتصاب أرض عربية ، أيا كان المغتصبون .

الوحـــــــــدة العربيـــــــــة ومعركـــــــــة تحريـــــــــر فلســــــــطين

منذ أن اغتصبت الصهيونية جزءا من الارض العربية فى فلسطين سنة 1948 ... رفع فى الوطن العربى شعار يقول ان الوحدة هى الطريق الى تحرير فلسطين".على أساس من القول بـــأن دولـــة الوحدة هى القادرة ــ وحدها ــ على أن توفر المتطلبات المادية والبشرية والاستراتيجية الكافيـــة لتصفية دولة اسرائيل فى معركة قصيرة تضع فيها العالم أمام الامر الواقع . وكـــان لابـــد مـــن أن تتحرر الدولة العربية أولا حتى تقيم الوحدة فتحرر فلسطين ... وهكذا كانت هزيمة 1948 . التـــى عرفت باسم " النكبة" محركا أول لقوى التحرر العربى التى استطاعت خلال العشر سنوات التاليـــة أن تجلى الجيوش المحتلة عن كثير من أجزاء الوطن العربى . ومع كل خطوة تحررية كان يبـــدو كما لو كان موعد الوحدة قريبا . وأن الارض المغتصبة من فلسطين فى طريقها الى الحرية . وبلغ التفاؤل ببعض العرب حد دراسة تفاصيل الوحدة التى هى الطريق الى تحرير فلسطين فقيل أنها تلك التى تقوم فيما بين الدول العربية المحيطة بالارض المحتلة وأسموها " دولة الوحدة الطوق" .وظل ذاك الشعار سائدا الى ان تحققت الوحدة بين مصر وسورية ســـنة 1958 . وانتظـــرت الجمـــاهير العربية فى كل مكان أن توفى دولة الوحدة مسئولياتها فتكمل الطوق أو تحرر فلســـطين .. وطـــال الانتظار الى أن وقع الانفصال سنة 1961 . وقع سهلا بدون مقاومة . وقبل سريعا بدون انتظار . وثبت من كل هذا أن الامل الذى عقد على وحدة 1958 فى تحرير فلسطين كان أملا غيـــر واقعـــى ومتسرعا معا . اذ أن وحدة 1958 لم تفشل فى تحرير فلسطين فحسب ، بل فشلت حتى فى الحفاظ على وجودها . ومنذ سنة 1961 التقت أغلب القوى فى الوطن العربى ، وفى العالم ، على محاولة دفن قضية الوحدة وقضية تحرير فلسطين معا تحت ركام من الصراعات الدولية والاقليمية . الى أن جاء حزيران (يونيو 1967 (فاذا بالقدر الاكبر من القوة العربية يقاتل متراجعا فى صحراء سيناء بينمـــــــا كـــــــان قـــــــد تقـــــــدم اليهـــــــا دفاعـــــــا عـــــــن دمشـــــــق .

وكـــــــــــــــــــــــان ماكـــــــــــــــــــــــان .

وكان طبيعيا أن تعصف هزيمة حزيران (يونيو) بكثير مما كان سائدا فى الوطن العربى من أفكار واتجاهات ، وأن تثير الشك فى مبررات وجود كثير مما كان موجودا من قوى ونظم ، وأن تشـــيع اضطرابا شديدا فى المقدرة على رؤية المستقبل الذى كان يبدو ــ حينئذ ــ حالك السواد . غير أننا الان . وبعد مايقارب ثلاث سنوات من الهزيمة نستطيع أن نرى بوضوح أن ليس كل ماكـــان فـــى حزيــــــــــــران (يونيــــــــــــو) 1967 كــــــــــــان ســـــــــــيئا .

لقد كان اسوأ مافيه أن الامة العربية ، ذلك الطرف الاصيل الذى لم يكن ممثلا فى المعركـــة ، قــد دفعت من أرضها ، وأبنائها ، وكرامتها ، ثمنا فادحا لاخطاء القوى الاقليمية . غير أنه فى مقابـــل هذا كشفت الهزيمة العاجلة للدول العربية عن عجزها الذى لا مفر منه عن تحرير فلسطين . وأدى هذا الى أن دخلت الجماهير العربية ساحة المعركة فى يومى 9و10 حزيـــران (يونيـــو 1967) لتفرض الصمود أولا . ثم لتستمرفى القتال بعد هذا فى شكل منظمات جماهيرية مســلحة . وهــذا كسب لاشك فيه . فلأول مرة فى التاريخ العربى المعاصر توجد فى الارض العربيـــة قـــوة مقاتلـــة لاتحمــــــــــــل هويـــــــــــة أيـــــــــــة دولـــــــــــة عربيـــــــــــة .

هـــــــــــــــذا مـــــــــــــن ناحيـــــــــــــة ..

ومن ناحية أخرى انهار الزكام الذى حاولت قوى كثيرة أن تدفن تحته قضية تحرير فلسطين . لـــم يعد أحد يذكر الاسباب التى كانت ذرائع القتال فى حزيران (يونيو 1967) . ونسى الناس خلـــيج العقبة وحق المرور فيه . وتجاوزت المعركة ازالة آثار العدوان . وفرض على الـــدول العربيـــة الا تسترد أرضها الى أن تحدد لها موقفا صريحا من تحرير فلسطين . وهكذا برغم كل شـــئ. بـــرغم المناورات ، وبرغم التآمر ، وجد جميع الاطراف أنفسهم وجها لوجه أمام حقيقة المعركـــة : أمـــا الوجود العربى واما الوجود الا سرائيلى فى فلسطين،وهو كسب لاشك فيه . .كسب من حيث أننا قد عرفنا ، ولو بعد دفع ثمن فادح للمعرفة ، أن أحدا فى الوطن العربى لايستطيع أن يـــزعم لنفســـه الحرية قبل أن تتحرر فلسطين .أو أن يحلم احلام الرخاء فى جوار الوجود الاسرائيلى فى فلسطين .

وعندما فرضت معركة تحرير فلسطين ذاتها على الناس ، عاد الحديث عن علاقة الوحدة بتحريـــر فلسطين . ورفع فى الساحة شعار مختلف يقول":ان تحرير فلسطين هو الطريق الى الوحدة العربية وليست الوحدة العربية هى الطريق الى تحرير فلسطين". وزاد أصحابه فأسموه" اســـتراتيجية ."

وهـــــــــو قـــــــــول غيـــــــــر واقعـــــــــى ، ومتســـــــــرع معـــــــــا .

أما انه غير واقعى فلان القوى المعادية هى التى بدأت معركة احتلال جزء من الارض العربية فـــى فلسطين سنة 1948 وفى غيبة دولة الوحدة . . وهى التى بدأت معركة تأمين الوجود الاســـرائيلى سنة 1956 وفى غيبة دولة الوحدة .ثم انها هى التى بدأت معركة فرض الاعتراف بدولة اسرائيل سنة 1967 وفى غيبة دولة الوحدة أيضا . فحتى لو كانت هزيمة الدول العربية فـــى حزيـــران (يونيو (سنة 1967 ، ورفض الجماهير العربية للهزيمة واستمرارها فى القتال ، قد حول المعركة مما أراد بها الصهاينة الى معركة تحرير فلسطين ، فان هذا لايغير شيئا من حقيقة أن العـــدو هـــو الذى اختار وحده تاريخ المعركة ، وفرضها فى الوقت الذى اختاره وحده . وعلى هذا يمكن القـــول بأن القوى المعادية قد استعجلت معاركها سنة 1948 وسنة 1956 و سنة 1967 لتثبيت الوجود الاسرائيلى" داخل حدود آمنة ومعترف بها" فى غيبة دولة الوحدة لان تلك القوى تعرف أن الوحدة العربية هى الطريق الموثوق الى تصفية الوجود الاسرائيلى وتحرير فلســـطين ،وأن غيبـــة دولـــة الوحـــدة تقـــدم لهـــا أكثـــر الظـــروف ملاءمـــة لتحقيـــق غاياتهـــا العدوانيـــة .

ان هذا يبدو لنا أكثر اتفاقا ، واتساقا ، مع الواقع الذى نعرفه ، من الزعم الذى يوحى بأن القـــوى العربية ، أو أية قوة عربية ، هى التى اختارت أن تبدأ وتخوض المعركة القائمة من أجـــل تحريـــر فلسطين وفى غيبة دولة الوحدة تنفيذا" لاستراتيجية" أعدت من قبل علـــى أســـاس أن" تحريـــر فلسطين هو الطريق الى الوحدة العربية وليست الوحدة العربية هى الطريق الى تحرير فلسطين ."

وهو قول متسرع ، لان أصحابه لم يصبروا على أنفسهم ، ولا على الظروف حتى يتبينـــوا :أولا ــ ماذا كان النضال القائم فى سبيل تحرير فلسطين سيحقق غايته فـــى غيبـــة دولـــة الوحـــدة أم أن تطورات المعركة المسلم بأنها طويلة ومعقدة ، وصعبة ، ستضعهم ــ ربما أقرب كثير مما يتصـــور الكثيرون ــ أمام خيار حيوى : فاما اقامة دولة الوحدة التى توفر لهم العمق الاســـتراتيجى الـــلازم لمواصلة القتال واما هزيمة اخرى . وحتى يتبينوا ــ ثانيا ــ ماذا كان بعض المناضلين فى ســـبيل تحرير فلسطين سيكفون عن القتال ليقيموا على الارض المحررة دولـــتهم الفلســـطينية المســـماة" ديموقراطيـــة" أم أنهـــم سيواصـــلون القتـــال الـــى أن تقـــوم دولـــة الوحـــدة الديموقراطيـــة .

ذلك لانه اذا كانت المعركة تدور الان فى ظل تأييد ودعم" حلف الخرطوم" الذى انعقد بين الـــدول العربية فى آب) أغسطس) سنة 1967 من أجل" ازالة آثار العدوان" فان هذا الحلف موقـــوت ــ على أحسن الفروض ــ بغايته . وعندما تنتهى مرحلة" ازالة آثار العدوان" . على أى وجه تكون

نهايتها ، يكون الحلف قد استنفذ اغراضه فينفض . حينئذ تبدأ" فعلا" معركة تحرير فلسطين . ولم يقل لنا أحد ــ بعد ــ كيف تستمر المعركة وقد كفت الدول العربية ، راغبة أو كارهة ، عــن دعــم المعركة . وأغلقت حدودها . وصفت أو حاولت تصفية قواعد المناضلين ؟.. نقول كيف تســتمر الا اذا سقطت الاقليمية العربية المتراجعة واقيمت على انقاضها دولة عربيــة تــوفر للقتــال أســباب الاســتمرار حتــى النصــر . انهــا عندئــذ دولــة الوحــدة النــواة أو نــواة دولــة الوحــدة .

ومن ناحية أخرى ، لم يقل لنا أحد ــ بعد ــ كيف يكون تحرير فلسطين طريقا الى الوحدة العربيــة خاصة اذا كان ذلك الشعار المسمى " استراتيجية" متضمنا كهدف اقامة دولة فلسطين المســماة" ديموقراطية" كيف تكون تلك الدولة الاقليمية طريقا الى الوحدة العربية ؟.. ماهى المعطيات الجديدة المتوافرة أو التى يمكن أن تتوافر لدولة فلسطين . ولم تكن متوافرة لدول عربية كثيرة تحررت ولم تتوحد . ان كل مانعرفه من المميزات الخاصة بدولة فلسطين المسماة" ديموقراطية" هو ان نسبة اليهود غير العرب فيها سيكون أكبر منها فى أية دولة عربية أخرى . فهل يصلح هذا سببا جديــدا لتكــــــون طريقــــــا الـــــــى الوحـــــــدة ؟ ..

ان هــذه اســئلة لاتكفــى النوايــا ــ ولــو كانــت حســنة ــ للاجابــة عليهــا .

أيـــــــــــن الحقيقـــــــــــة اذن ؟ .

هل ثمة علاقة بين الوحدة العربية وتحرير فلسطين ؟ وان وجدت فما هو مضمونها ، وأين تقــع ، وكيــف تتجســد فــى هــذه المرحلــة التاريخيــة التــى يمــر بهــا النضــال العربــى ؟ .

فــى الاجابــة علــى هــذه الاســئلة نجتهــد بقــدر مــايطيق هــذا الحــديث المحــدود .

عندما يكون الحوار دائرا بلغة واحدة ثم لاينتهى الى اتفاق فلابد من أن يكــون ثمــة خــلاف فــى مضامين الكلمات التى يستعملها المتحاورون . وتكون الخطوة الاولى أن نعرف مايعنيه كل طــرف بالكلمات التى يقولها . والحوار حول علاقة الوحدة بتحرير فلسطين يدور بين الذين ينكرون الوحدة ولاينكرون تحرير فلسطين ، فلابد اذن من أن يكون ثمة خلاف بين مايعنيه كل مــنهم" بالوحــدة العربيـــــــة" أو" بتحريـــــــر فلســـــــطين ".

ونحن نعتقد أن مرجع الغموض وعدم التحديد فى هذه العلاقة الى الذين يتحــدثون عــن الوحــدة

العربية أو أنهم هم المسؤولون عن القدر الاكبر منه . ولولا هذا لما رأينا أن كل النـــاس - فيمـــا يقولون - راغبون فى الوحدة العربية ومن دعاتها ، ومع ذلك ماتزال الوحدة أبعد الاهداف العربيـــة عن التحقق . بل أن أغلب الناس لايعرفون كيف تتحقق وماهو الطريق اليها . ولو عرفوا لعرفـــوا موقـــــــــع تحريـــــــــــر فلســـــــــطين مـــــــــــن هـــــــــــذا الطريـــــــــــق .

وآية هذا أن كثيرين من اولئك الذين يتحدثون أو يكتبون عن الامة العربية . وعن القومية العربيـــة . وعن الوحدة .. الخ .حديثا يبدو كالمناجاة الذاتية . ويعز معه الحوار . لاننا لانستطيع أن نعـــرف مما يقولون كيف عرفوا مايتحدثون فيه الا أن يكون عن طريق شعورهم بالانتمـــاء القـــومى ، أى حالتهم النفسية ، والشعور بالانتماء القومى دلالة صحيحة على وجود امة ينتمى اليهـــا المتحـــدث ولكنه لايصلح منطلقا الى تحديد أهداف المستقبل . ونحن نعرف هذا مثلا من قول مطروح ومتردد فى الادب القومى العربى . فى كل الادب القومى العربى تقريبا كما لو كان بديهيا . ذلك القول بأننا مادمنا امة عربية واحدة" فيجب" أن تكون لنا دولة سياسية واحدة . أو أننا مادمنا أمـــة عربيـــة واحدة" فيجب" أن نساهم جميعا فى تحرير فلسطين . والشعور بالانتماء القومى يبـــرر أننـــا امـــة عربية واحدة. اما لماذا" يجب" مابعد هذا فلا جواب . أو أن ثمة اجابات غير وافيـــة . او اجابـــات غير صحيحة وان كانت هى ذاتها غير مبررة قوميا . مثل تلك الاجابة التى تقول" يجب" أن تقـــوم الوحدة لانها الطريق الى تحرير فلسطين ، لان دولة الوحدة ــ وحدها القادرة على توفير المتطلبات اللازمة لتحقيق نصر عسكرى ضد الصهيونية . وهو قول صحيح . ولكن المسألة هى كيف عرفنـــا أنه صحيح . ان كنا عرفناه عن طريق ممارسة القتال الفاشل عشرين عاما ضد اسرائيل . لاأكثر . ثم تنفض الوحدة بعد أن تكون قد أدت مهمتها . وفى هذه الحالة تكون الوحدة غير لازمة بالنســـبة الى الدول التى لاتحيط باسرائيل ، بل وتكون الوحدة العسكرية بين الدول التى تحـــيط بهـــا بـــديلا صالحا من الوحدة السياسية لا نها توفر المتطلبات اللازمة للتفوق العسكرى أو يمكن توفرها . بل نزيد فنقول ان حتى الوحدة العسكرية لاتكون لازمة لو احسنت بعـــض الـــدول العربيـــة اســـتخدام امكانياتها المتاحة ماديا وبشريا . اذ لو احسنت لكانت قادرة على هزيمة اسرائيل . وفى كل الاحوال ستكون علاقة الوحدة بتحرير فلسطين موضوعا من" صلاحية" العسكريين ، قادة المعركة ، الذين يقررون مضمون تلك العلاقة ، وأين تقع، وكيف تتجسد طبقا لتطورات استراتيجية أو تكتيك القتال ضـــــــــــــــــــــــد اســـــــــــــــــــــــرائيل .

اما اذا كنا قد عرفنا أن" الوحدة العربية" لازمة لتحرير فلسطين عن طريق البحث العلمى فى تلـــك الظاهرة الاجتماعية التى تسمى" أمة"واكتشاف العلاقة الموضوعية بين الوجود القومى والوحـــدة القومية . فان الوحدة تكون لازمة لزوما موضوعيا ، فنلتزمها غاية فى معركة تحرير فلســـطين ،

وفى غير معركة تحرير فلسطين ، ولانعفى منها أحدا مهما يكن بعيدا عن ساحة معركة فلسطين ، ولانتراجـــــع عنهــــا حتــــى بعـــد أن تتحــــرر فلســــطين .

هنا يكون موقفنا من الوحدة وتحريــر فلســطين موقفــا عقائــديا ، ولــيس موقفــا انتهازيــا .

والموقــف العقائــدى القــومى يقــوم ــ باختصــار ــ علــى خمســة أســس متكاملــة :

اولا: ان الامة جماعة بشرية تكونت تاريخيامن جماعات وشعوب كانت مختلفة لغة وتراثا ومصالح ومتصارعة ومتفاعلة خلال ذاك الصراع ، انتهت بعد مرحلة تاريخية طويلة من المعانــاة الــى أن تلتحم لتكون شعبا واحدا ذا لغة مشتركة وتراث مشترك ومصالح مشتركة . وهذا لاخلاف عليــه . انما الخلاف حول الارض الخاصة والمشتركة كعنصر من عناصر التكوين القومى . ونحن نرى أن الاختصاص برقعة مشتركة من الارض هو العنصر الجوهرى المميز للامة . ذلك لان كافة العناصر الاخرى مثل وحدة اللغة التى تركز عليها النظرية الالمانية ، ووحدة المصالح الاقتصادية التى تركز عليها النظرية الماركسية . أو وحدة الثقافة التى تشيد بها الكتابات العربية . أو حتى وحدة الارادة التى تركز عليها النظرية الفرنسية .. الخ .كل هذه عناصــر ممكــن أن تتــوافر ، وأن تجتمــع ، لجماعات بشرية لاترقى الى مستوى " الامة" كالمجتمعات القبلية مثلا . انما تجاوزت المجتمعــات الطور القبلى ودخلت طور التكوين القومى بالاستقرار على أرض معينــة . ثــم اكتملــت تكوينــا باختصاصــــها بتلــــك الارض المشــــتركة ، وبهــــذا أصــــبحت أمـــة .

ثانيا : يترتب على هذا أن الامة تكوين واحد من الناس (الشعب) والارض (الوطن) معا . فــنحن عندما نقول أننا أمة عربية ثم نتحدث عن الوطن العربى لايكون حديثنا عن شيئين منفصلين بل عن الكل (الامة) الذى يتضمن الجزء (الوطن) فالشعب العربى (الناس) والوطن العربى (الارض) يكونان معا الامة العربية . التى ماتحولت من شعوب لاتختص شعبا بعينه الى أمة الا عندما الــتحم الشعب العربى بالوطن العربى واختص به ليكونا وجودا اجتماعيا واحدا هو الامة العربية . من هنا ندرك انه عندما يتعرض الوطن العربى ، كله أو بعضه ، للابادة أو الطرد مــن أرضــه . وعنــدما يتعرض الوطن العربى كله أو بعضه للغزو الاستيطانى أو الاقتطاع أى عندما تقــوم أيــة محاولــة لفصل الناس (الشعب) عن الارض (الوطن) لانكون بصدد خطر يتهدد بعض أبناء الشعب العربى يمكن تعويضهم عنه أرضا بأرض ، ولا بصدد خطر يتهدد جزءا من الوطن العربى يمكن الاستغناء عنه أو المساومة عليه ، بل نكــون بصــدد خطــر يتهــدد الوجــود القــومى العربــى ذاتــه .

وهكذا تقدم لنا القومية أول ضوابط الموقف العقائدى من الغزو الصهيونى لفلسطين .

ثالثا : ثم أنه لما كانت الامة تكوينا تاريخيا فان اشتراك الشعب فى الوطن هى مشاركة تاريخية تحول من ناحية دون الشعب وأن يتصرف فى وطنه أو جزء منه فى أية مرحلة تاريخية معينة لان الوطن شركة تاريخية بين الاجيال المتعاقبة . وتحول من ناحية أخرى دون أى جزء من الشعب وأن (يتصرف) فى الاقليم الذى يعيش عليه أو فى جزء منه بالتنازل عنه للغير أو تمكين الغير من الاستيلاء عليه) علاقة خارجية) وتحول من ناحية ثالثة دون أى جزء من الشعب وأن يستأثر بأى اقليم عن بقية الشعب (علاقة داخلية).

ومن هنا نصل الى عدة نتائج هامة وملزمة قوميا . أولها أن فلسطين كجزء من الوطن العربى اقليم مملوك ملكية مشتركة للشعب العربى كله وليس ملكا خاصا لشعب فلسطين . ثانيها؛ ان الشعب العربى كله ، ومن باب أولى شعب فلسطين وحده ، لايملك الحق فى التنازل ، أو التفريط ، أو المساومة ، على حرية فلسطين . ثالثهما : ان مسؤولية تحرير فلسطين واقعة على الشعب العربى كله وليس على شعب فلسطين وحده . رابعا: ان كل الاتفاقات ، او المعاهدات أو القرارات ، والدساتير ، والقوانين ، والمواقف ، والتصريحات ،سواء كانت صادرة من دول أجنبية أو دول عربية ، فى الماضى أو الان أو فى المستقبل ، تمس حرية فلسطين ، غير مشروعة قوميا ، فهى ليست حجة على الامة العربية ولاقيدا على حقها فى تحرير فلسطين .

ان الامة كتكوين تاريخى لم تتكون اعتباطا أو مصادفة . بل تكونت من خلال بحث الناس عن حياة أفضل . فاذا كنا قد بلغنا خلال المعاناة التاريخية الطور القومى ، أى مادمنا أمة عربية واحدة فان هذا يعنى أن تاريخنا ، الذى قد نعرف احداثه وقد لانعرفها ، قد استنفذ خلال بحث اجدادنا عن حياة أفضل كل امكانيات العشائر والقبائل والشعوب قبل أن تلتحم معا لتكون أمة عربية واحدة وانها عندما اكتملت تكوينا كانت بذلك دليلا موضوعيا غير قابل للنقض على أن ثمة" وحدة موضوعية" قد نعرفها ، وقد لانعرفها بين كل المشكلات التى يطرحها واقعنا القومى ، أيا كان مضمونها ، وأنها بهذا المعنى ، مشكلات قومية لايمكن أن تجد حلها الصحيح الا بامكانيات قومية ، وقوى عربية ، فى نطاق المصير القومى . قد يحاول من يشاء أن يحل مشكلاته الخاصة بامكانياته القاصرة ، ثم يقنع بما يصيب ولكنه لن يلبث أن يتبين ، فى المدى القصير أو الطويل ، أن الحل الصحيح المتكافئ مع الامكانيات القومية المتسق مع التقدم القومى ، قد أخطأه عندما اختار أن يفلت بمصيره الخاص من الوحدة الموضوعية للمشكلات التى تشكل حلولها المصير القومى الواحد .

وهكذا بينما احتاج الاقليميون الى الهزيمة المرة فى حزيران (يونيو) 1967 ليتعلمــوا أن أحــدا لايستطيع أن ينتصر فى معركة التحرر مادامت فلسطين محتلة لايحتاج القوميون الى تجارب مريرة ليعرفوا أن أحدا لن ينتصر فى معركة نحرير فلسطين مادام للاستعمار قدم وقاعدة فى الوطن العربى ، وأن فلسطين لن تتحرر بغير امكانيات قومية ، وقوى قومية ، فى نطاق معركة التحــرر العربــى واطــــــــــــــار المصــــــــــــــير القــــــــــــــومى .

خامسا : وأخيرا ، فان هذه الوحدة الموضوعية بين المشكلات التى يطرحها الواقع القــومى بمــا نعنيه من أن حلولها الصحيحة المتكافئة مع المقدرة القومية غير قابلة للتحقق الا بامكانيات وقوى قومية فى اطار المصير القومى .تفرض الوحدة العربية كأداة يستحيل بدونها وضع كل الامكانيــات والقوى القومية ، واستعمالها ، فى سبيل حل كل المشكلات العربية ، وتحقيــق المصــير العربــى الواحد . ان هذا لايعنى أن الاقليميين ودولهم عاجزون تماما عن تحقيق أى نجــاح فــى مواجهــة المشكلات التى يتصدون لها ، بل يعنى تماما انهم لاينجحون الا مؤقتا وأنهم لن يلبثوا أن يتبينوا ، فــى المــدى القصــير أو الطويــل ، أن الوحــدة لازمــة لاطــراد النجــاح أو الحفــاظ عليــه

وهكذا نعرف من الان . أن فلسطين لن تتحرر فى غيبة دولة الوحدة ، وأنها حتى لو تحررت لــن تستطيع أن تحافظ على تحررها الا فى ظل دولة الوحدة . كيف اذن فشلت وحدة 1958 فى تحرير فلسطين ؟ .. لاسباب بسيطة . لانها كانت استجابة قومية ولكنها لم تكن وحدة قومية فشلت فى أن تتحول الى وحدة قومية . كانت اشتراكا بين اقليمين فى الرئاسة وفى الحكومة ، وبقــى الاقليمــان منفصلين جماهيريا ، واقتصاديا ، وماليا ، وعسكريا فلم تكن تجسيدا لوحدة المصير داخلها . ثــم انها اقتنعت بالاقليمين وتوقفت عن الامتداد ، فارتضت التجزئة ولم تجد وحدة المصــير خارجهــا وهكذا انقلبت الى دولة اقليمية فى اقليمين ، بدلا من أن تكون دولة الوحدة النواة ففقدت أساســها العقائــــــــــدى ومضــــــــــمونها القــــــــــومى ، ففشــــــــــلت .

الى هنا نكون قد عرفنا الموقف القومى العقائدى من الوحدة وعلاقتها بتحرير فلسطين .غير أن هذا لايكفى ، لان الموقف القومى العقائدى تعبير سلبى فى مواجهة الواقع ، ويبقى أن نعرف كيف يحدد قوانا ويضبط حركتها الايجابية ، أى كيف تتحول القومية من وعى على الواقع الى حركــة لتغييــر الواقع وأين تقع العلاقة بــين تحريــر فلســطين والوحــدة العربيــة فــى تلــك" الحركــة . "

وأرجو الا يكون غائبا عنا أن حقيقة المشكلة التى نعالجهاآخذة فى الوضوح خلال الحوار فنحن الان لسنا أمام القضية الشكلية الاولى : أيهما ا لطريق الى الاخر ، الوحدة أم تحرير فلسطين ، بل نحن

أمام الحقيقة الموضوعية لتلك القضية ، علاقة النضال من أجل الوحدة بالنضال من أجـل تحريـر فلسطين .

ولما كانت الحركة النضالية ، أية حركة لتغيير الواقع تتضمن خمسة عناصر هى : المنطلق والغاية والقوى والاستراتيجية والتكتيك ، فسنرى فيما يلى ـ باختصار شديد ـ كيف تحدد لنـا القوميـة العناصـر الخمسـة للحركـة القوميـة وموقـع معركـة تحريـر فلسـطين منهـا .

(1)اما عن المنطلق فهو محدد بالوجود القومى ذاته ، بالامة كواقع موضوعى ، وبواقع الامة فى مرحلة الانطلاق ، وفى الواقع العربى وقائع كثيـرة أولهـا أننـا أمـة واحـدة ولكـن مجـزأة و أن فلسـطين جـزء مـن الامـة العربيـة ولكـن مغتصـبة ، مـن هنـا تكـون البدايـة .

(2)أما عن الغاية فهى محددة بوحدة الوجود القومى التى تعنى اختصاص الشـعب العربـى كلـه بالوطن العربى كله ، فيما يتفق مع تلك الوحدة يبقى ومالايتفق معها يجبأن يزول . ولمـا كانـت لصهيونية تغتصب جزءا من الوطن العربى وكانت كل دولة عربية تستأثر بجزء من ذلك الوطن . وكان هذا وذاك لايتفقان مع وحدة الوجود القومى ، فان غاية النضال القومى تكون استرداد الارض العربية من غاصبيها ، والغاء تجزئتها واقامة دولة عربية واحدة عليها، بمـا فيهـا فلسـطين .

(3)أما عن القوى فمحددة بوحدة المصير القومى . ولما كانت وحدة المصير القومى تعنى أن الحل الصحيح لايمكن أن يتحقق الا بامكانيات قومية وقوى قومية . فان القوى المناضلة من أجل الوحدة لن تكون قادرة على النصر النهائى الا اذا كانت قوى قومية . أى الا اذا كانت مجسدة فـى ذاتهـا هدف الوحدة . وهى لاتكون كذلك اذا قبلت التجزئة الاقليمية فيها ، أى اذا قبلت أن تكـون قـوى اقليميـة ولـو كانـت متحالفـة .

وهكذا تكون وحدة القوى القومية شاملة المناضلين فى معركة فلسطين ، ولكنهـا تنفـى تجزئـة القـوى الى قـوى قوميـة وقـوى فلسـطينية .

(4)اما عن الاستراتيجية فهى محددة بالوحدة الموضوعية للمشكلات التى يطرحها الواقع القومى فلابد من أن تكون استراتيجية واحدة تصل بين الواقع القومى والمصير القومى . ولما كانت الوحدة العربية الشاملة لاتقوم الا بعد التحرر الكامل لكل اجزاء الوطن العربى فان التحرر يشكل المرحلـة الاولى من استراتيجية النضال من أجل الوحدة . وهى استراتيجية ملزمة للمناضلين فى كل جزء :

التحرر كمرحلة اولى من نضال غايته الوحدة . وهكذا تدخل معركة تحرير فلسطين فى نطاق المرحلة الاستراتيجية الاولى من النضال القومى من أجل الوحدة العربية : مرحلة التحرر . ويصبح القول بأن تحرير فلسطين هو الطريق الى الوحدة بشرط أن نفهمه على أنه طريق دخول" فلسطين " الى دولة الوحدة العربية .

ومن ناحية أخرى فان وحدة الاستراتيجية تعنى أنه كلما انتصرت القوى القومية فى ساحة معركة ألقت بقوتها فى الساحات الاخرى الى أن تحقق الوحدة العربية الشاملة . وهكذا يكون النضال القومى ملتزما بسحق الاقليمية والغاء التجزئة فى الاجزاء المحررة واقامة دولة الوحدة النواة ثم الدخول بها معارك تحرير وتوحيد باقى الاجزاء وتضاعف المقدرة على النصر ــ هنا ــ لاشك فيه ، ولكن ليس مصدر الالتزام بتحقيق الوحدة النواة والدخول بها معركة التحرير ، بل مصدره الموقف القومى العقائدى . وعلى هذا يصح القول بأن الوحدة هى الطريق الى تحرير فلسطين بشرط أن نفهمه على أنه طريق الوحدة النواة الى الوحدة الشاملة .

(4)أما عن التكتيك فلا يتوقف على القوى القومية . ولكن على ظروف المعارك ،وقوى الاعداء ، وأساليببهم ، وغايتهم ، والقوى القومية مطالبه فى هذا بأن تلتزم الاسلوب العلمى فى المواقع التكتيكية لهزيمة القوى المعادية . ولكن ــ وهذا بالغ الاهمية والخطورة ــ فى نطاق الالتزام الاستراتيجى أى الا تترك للقوى المعادية فرصة استدراجها من خلال المناورات التكتيكية الى خارج خطها الاستراتيجى ، أو أن تندفع هى الى قبول أى نصر تكتيكى يكون على حساب الغاية الاستراتيجية . وهكذا لايجوز أن نتننازل أو نتراجع عن هدف الوحدة العربية من أجل النصر التكتيكى فى أية معركة ولو كانت معركة تحرير فلسطين .

وهكذا يستقيم لنا ــ كما أرجوــ فهم العلاقة بين الوحدة وتحرير فلسطين فى هذه المرحلة ، على وجه يمكن تلخيصه فى جملة قصيرة : التحام القوى القومية فى قوة مناضلة واحدة تخوض معركة تحرير فلسطين وتفرض الوحدة فى الاجزاء المتحررة ثم تدخل بها المعركة لتأمين النصر النهائى فى معركة تحرير فلسطين حتى تستطيع أن تكسب فلسطين لدولة الوحدة .

فهل هى علاقة صحيحة ؟

هنا يأتى دور الممارسة لتكون محكا لاختبار صحة المعرفة العلمية .

فمـــــــــــــــاذا تثبـــــــــــــــت الممارســـــــــــــــة ؟ .

(5)أما على الجانب العربى فلم يكف أى قادر على الكلام ، منذ حزيران (يونيو)1967 عن القول بأن معركة تحرير فلسطين معركة عربية ، وأن مسئولية تحرير فلسطين تقع على الامـــة العربيـــة كلها ، وأن التعامل مع" الواقع الملموس" ــ كما قالت احدى النشرات الصادرة من الجبهة الشعبية أثبتت أنه :" من الواضح أن النضال من أجل تحرير فلسطين ليس مهمة الشعب الفلسطينى وحده بل مهمة الشعوب العربية كلها وان انجاز هدف التحرير وتصفية الكيان الاسرائيلى لايمكن أن يكون الا حصيلة نضال الشعوب العربية كلها فى حرب شعبية طويلة الامد ضد الامبريالية والصهيونية علـــى امتداد الارض العربية ." . وأنه مالم تتم تعبئة طاقات الجماهير العربية كلها فان ســحق العــدوان الاسرائيلى وتدمير جذوره يبقى حلما غير قابل للتحقيق (الجبهة الشعبية الديموقراطيـــة لتحريـــر فلسطين) ــ حركة المقاومة الفلسطينية فى واقعها (الراهن).كلهم كل المساهمين فـــى المعركـــة ، قادة ، وقواعد ، وحكومات لايكفون عن الاستغاثة بالمائة مليون عربـــى ، وتحمـــيلهم مســـؤولية معركة التحرير التى لايمكن أن يتم النصر فيها بغير قـــوة الجمـــاهير العربيـــة . حتـــى الاقليميـــة الفلســـطينية تـــدعو الجمـــاهير العربيـــة الـــى أن تحشـــد نفســـها فـــى جبهـــة مســـاندة .

اذن " فالواقع الملموس" قد أثبت أن النصر لايتم الا بالتحام الجماهير العربية وفاء لمسؤولياتها عن تحريـــــــــــــر فلســـــــــــطين ، وهـــــــــــــو صـــــــــــــحيح .

ولكن الذين يستغيثون بالامة العربية ، وبالمائة مليون عربى . ويحملونهم مسئولية تحرير فلسطين لم يقولوا شيئا عن حقوق المائة مليون عربى فى فلسطين (المتحررة) أو فى ازالة آثار العــدوان .لم يقل أحد كلمة واحدة اجابة عن السؤال الذى يهم الجماهير العربية : لماذا يموتون مـــن أجـــل تحرير فلسطين ؟ أليست المسؤولية هى الوجه الاخر للحق ؟ فأين حق الامة العربية فى فلســـطين وكيف يتجسد ؟ ان من أغرب ماقرأنا فى هذا ماقاله اولئك الذين اصدروا نداءهم المنشور عن حلم التحرير الذى لايتحقق الا بنضال الشعوب العربية تبريرا لدخول الجماهير معركة التحريـــر ، قـــالوا :لان الجماهير الكادحة لاتملك الحياة ، مع أنها تملك مع الحياة أمل الوحدة والتقدم . ويســـتغيثون بالجماهير العربية دفاعا عن الكرامة العربية . والكرامة العربية عزيزة وتستحق القتال دفاعا عنها .ولكنها ليست كلمة فارغة ، انها تعنى حياة كريمة مطهرة من المذلة ولايريـــد أحـــد أن " يعـــد" الجماهير العربية حتى بالحياة الكريمة المطهرة من المذلة ولو بعد التحرير ،ربما لانهم يعرفون أن ذلك لايتحقق الا فى دولة الوحدة العربية وهم لايريدون أن يلتزموا بوعد الوحدة بعد التحريـــر . ان الجماهير العربية ليست بلهاء وقد كان لها فى حزيران (يونيو) 1967 عبرة لاتنسى ، فاذا كـــان

أحد يظن أنها ستقاتل حتى الموت الى أن تتحرر فلسطين لمجرد أن يعود الامر فى الوطن العربى الى ماكان عليه قبل حزيران) يونيو) 1967 فسيتعلم أن الغباء لاينفع صاحبه أبدا . والغباء وباء فى الاقليمية العربية .بدليل انهم مازالوا يتصرفون على أمل أن كل شئ سيبقى كما كان . بل أن منهم من هو مشغول عن المعركة بمخططات التوسع بعد المعركة فهو يدخر قواه ليبنى فى الارض العربية امبراطوريته الخاصة . وكل هذه أوهام . لا يساويها وهما الا توقع استجابة الجماهير العربية لدعوة الالتحام من أجل الموت لاشئ أكثر ، واستنفارها بالحديث عن المسؤولية بدون التزام بحقها فى الارض العربية ولما كان هذا الالتحام لايتم الا على هدف الوحدة فان هذا" الواقع الملموس" يقدم دليلا من الممارسة على أن النصر لايتم الا بالتحام تحرير فلسطين بالوحدة العربية .

أما عن الجانب الآخر ، جانب القوى المعادية فان الامر أكثر وضوحا . فهى تخوض معركتها ضد الامة العربية وليس ضد أية دولة عربية . وهذا واضح من أن الحركة الصهيونية عندما وضعت مخططاتها لغزو الوطن العربى فى مؤتمر بال سنة 1897 لم تكن هناك أية دولة عربية قائمة لافلسطين ولاغير فلسطين . قد تصطدم الصهيونية تكتيكيا مع دولة عربية قائمة أو اخرى تبعا لما تتبينه من مخاطر مؤقته . ولكن خطتها الاستراتيجية تستهدف اقامة دولة يهودية من الفرات الى النيل ، بصرف النظر عما هو قائم على تلك الارض من دول أو نظم أو قوى . الغزو الصهيونى موجه اذن الى الامة العربية . فهى الطرف الاصيل فى المعركة وهذا يقتضى أن تكون قواها فى المعركة قوى قومية ملتحمة .

واذا كانت الحركة الصهيونية ذات أهداف محددة واستراتيجية خاصة ، فان من عناصر تلك الاستراتيجية التحالف مع القوة الاستعمارية المتفوقة . تحالفت مع المانيا أولا ، ثم مع بريطانيا ثانيا ثم مع الولايات المتحدة الامريكية أخيرا ، تبعا لانتقال قيادة الاستعمار العالمى . وللاستعمار العالمى موقف عدائى لم يتغير ضد الوحدة العربية . هو الذى صنع التجزئة ابقاء للتخلف حتى يظل مسيطرا على مقدرات الامة العربية . وهو الذى يحرس التجزئة حتى لاتقوم دولة الوحدة . وهكذا التقت المصالح الاستعمارية مع المصالح الصهيونية لاقامة دولة يهودية على الوطن العربى تحقق أهداف الصهيونية وتحول دون الوحدة معا .

قرأنا كلنا عن تقرير كاميل بونومان سنة 1907 الذى انتهى الى أن حماية المصالح الاستعمارية فى الوطن العربى تستلزم اقامة حاجز بشرى قوى وقريب يفصل المشرق العربى عن المغرب العربى ويحول دون الوحدة العربية المتوقعة .ولقد كنت مهتما بالتعرف على هذا التقرير فى مصدر

رسمى تحقيقا لصحة الاشارة اليه فى الكتابات الخاصة ، الى أن اطلعت على ملخص له منشور فى وثيقة عربية رسمية ، فأصبح حقيقة تمكن الاشارة اليها . ولكنها ليست الحقيقة الوحيدة ، فقد كان من ضمن المكاسب التى تحققت بعد هزيمة حزيران (يونيو) 1967 أن أصبح للقضـية العربيـة أنصارا من الدارسين فى أوروبا وخاصة من الفرنسيين . وعرفنا مما كشفوه من وثـائق علاقـة الغزو الصهيونى بالوحدة من هذه الوثائق مانشره بيير ديستريا فى كتابه" من السويس الى العقبة "صفحة 56 نقلا عن كتاب نشر فى فرنسا سنة 1937 بعنوان" الله أكبر" ألفه" محمد أسعد بـك" وهو اسم مستعار لاحد عملاء الصهيونية فى الوطن العربى . والكتاب عبارة عن تقرير كان مقدما الى حد قادة الحركة الصهيونية العالمية هو المستشرق النمساوى الدكتور فولفجانج فايست . يقول كاتبـه :

"ان خلاصة الاسباب الجدية للكفاح من أجل الارض المقدسة هو موقعها الاستراتيجى وتأثيره فى مستقبل المنطقة . فلو عادت فلسطين الى دولة عربية موحدة تضم مصر لقامت هناك قوة عربيـة مسلحة تستطيع أن تتحكم فى قنال السويس والطريق الى الهند . اما اذا ظلت فلسطين مستقلة ، أو أصبحت دولة يهودية ، فانها ستقوم عقبة فى سبيل انشاء الدولة الكبرى حتى لو تمت الوحدة بين دولة عربية وأخرى على جانبى فلسطين . ان دولة صغيرة" حاجزة" تقوم على 100000 كيلـو متر مربع على ضفتى نهر الاردن ستحمى كل دولة عربية ضد تدخل أية دولة عربيـة اخـرى ..

ان توازن القوى حول قنال السويس يتوقف اذن على استقلال فلسطين بالنسبة الى العالم العربى ، يتوقف على دولة فلسطين تكون كسويسرا عند ملتقى القارات الثلاث . ان هذا الاستقلال يتفق تماما مع طموح الاستعمار اليهودى ، ذلك لان اليهود وحدهم هم الذين ستكون لهم مصـلحة فـى هـذا الاستقلال وليس العرب اذ ان هؤلاء سيكونون من الدعاة المتحمسين للاندماج فى دولـة عربيـة كبـرى ".

ان هذا الكلام القديم يبدو حديثا ، لانه يعبر عن استراتيجية معادية وضعت قديما ومـاتزال تحكـم تكتيك القوى المعادية . ومن حين الى آخر يعبرون عنها بوضوح وقوة . فـى تشرسـن الثـانى (نوفمبر) 1958 أى بعد قيام وحدة 1958 نشرت مجلة" الابسر فاتور دى مويان اوريان" مقـالا بمناسبة الذكرى الثانية لحرب 1956 قالت فيه :ان التفوق الاسرائيلى قدم ضمانا لحماية الوضـع القائم ضد المحاولات الوحدوية . لقد أصبح واضحا أن حفظ التوازن فيما بـين الـدول العربيـة المجاورة لاسرائيل والدول العربية عموما مهمة يتولاها الاسرائيليون وتدخل فى نطاق واجبـاتهم . اننا نقوم هنا ، اذا صح التعبير ، على تنفيذ" مبدأ مونرو" خاص بالشرق الاوسط . ان القرار الذى

اتخذناه بهذا الخصوص منذ عشر سنوات (أى منذ 1948) قد أدى الى الاستقرار والسـلام بـدلا من الخوف" وفى كانون أول (ديسمبر) سنة 1966 قال ليفى أشكول فـى رسـالة بـالراديو أن سياسة اسرائيل منذ سنة 1958 (أى منذ الوحدة) أن تحول ولو بالقوة دون أى تغيير يحدث فى الوضع القائم للدول العربية" . وفى شباط (فبراير (سنة 1967 قال أبا ايبان فى تصريح أدلى به فى لندن :" يجب أن يكون واضحا أن مصير المنطقة العربية لايمكن أن يكون الوحدة . بالعكس انه الاستقلال القائم على التجزئة ."

وهكذا تثبت الممارسة ـ ممارسة المعركة ضدنا ـ أن القوى المعادية قد غزت فلسطين مقدمة لغزو مزيد من الاراضى العربية لاقامة دولة يهودية وظيفتها أن تحول دون الوحدة العربية لشاملة كهدف استراتيجى لتلك القوى المعدية .

وهذا يعنى أن طبيعة معركة تحرير فلسطين التى تفرض التحام الجماهير العربية تحتم أن يكون التحامها من أجل الوحدة كهدف استراتيجى للقوى العربية . وبهذا تقدم طبيعة المعركة الدليل على صحة الموقف القومى من العلاقة بين الوحدة وتحرير فلسطين . اذا كان هذا هو الحل الصحيح : فماالذى يحول دونه ؟ .

أولا: وقبل كل شئ ، عدم وفاء القوى القومية بمسؤولياتها ، فلو أرادت الوفاء لما حالت أية قوة على الارض دون أن تلتحم فى قوة مناضلة لتحرير فلسطين واقامة دولة الوحدة .

ثانيا : الاقليمية العربية ، والاقليمية كنقيض للقومية تقوم على أساس أن لكل اقليم عربى تكوين اجتماعى (مجتمع (قائم بذاته مستقل بمصيره ، ولما كان الاستقلال علاقة ذات طرفين أو أكثر (الاستقلال بالذات عن الغير) فان دلالة الاقليمية تتجاوز أى اقليم لتصبح علاقة قائمة على تبادل الاعتراف بتجزئة الوطن العربى تجمع الاقليمين فى كل مكان ، حتى الذين لاينتمون الى دولة عربية ، لتضعهم جميعا فى مواجهة الشعب العربى فى موقف مضاد لوحدته القومية . وتتجسد هذه الاقليمية فى الموقف الاقليمى من المشكلات العربية ، ومن معركة تحرير فلسطين بوجه خاص ، لان الاقليمية متصدية فعلا للمعركة دفاعا عن فلسطين أو دفاعا عن الاجزاء التى احتلت بعد 1967 ولكن من موقف اقليمى .

وقد قلنا دائما ونقول الان ان الاقليمية فاشلة .

ولسنا نحتكم لتجربة الفشل فى السنين الماضية ، لان هناك مـن يتوهمـون أن تغييـر القيـادات الاقليمية قد يكون سببا للنصر .وذلك من أوهام الاقليمية . لان فشل الاقليمية كامن فى ذاتها مهمـا تكن نوايا قادتها . ففى معركة تحرير فلسطين مثلا ، تفتقد الاقليمية (غيـر الفسـطينية) حتـى مبررات القتال . ان استقلال الدول الاقليمية ذاتا ومصيرا يجردها من أى حافز للقتـال مـن أجـل تحرير فلسطين لسبب بسيط هو أن فلسطين تقع خارج حدود الدول الاقليمية المستقلة ذاتا ومصيرا . وأكثر الاقليميين امانة هم الذين يعترفون بهذا ويبحثون عن مخرج لاسترداد ماضاع من أرضـهم ثم يلقون مسؤولية تحرير فلسطين على شعب فلسطين واذا قيل أن اسرائيل تمثل خطرا على الدول العربية فان المسألة ــ بمنطق الاقليمية ــ تكون كيف تؤمن وجودها من هذا الخطر . وهو ممكـن ولو بالمساومة على أرض فلسطين ذاتها ، ولو بقبول حماية واحدة أو أكثر من الدول . كـل هـذا ممكن بدون حاجة الى تحرير فلسطين ، واذا لم يكن ممكنا فان الاقليميين سـيقاتلون دفاعـا عـن أرضهم ان استطاعوا ، ولكنهم لن يصلوا أبدا ــ ولو استطاعوا ــ الى حد دخول معركـة تحريـر فلسـطين .

هـذا مـن ناحيـة ..

ومن ناحية أخرى فان" الاقليمية" المستقلة ذاتا ومصيرا تعنى أولا استئثار كل دولة عربية بالجزء الذى تقوم عليه فهى تغتصبه من الامة العربية . وتعنى ثانيا حرمان الشعب العربى فيها من حقـه فى الارض العربية خارجه فهى تحبسه فيه وبهذا تحول ــ سلبيا وايجابيا ــ دون التحم الجمـاهير العربية فى قوة موحدة لتحرير فلسطين واقامة دولة الوحدة . وبهذا لاتخدم الا الغـزو الصـهيونى لفلسطين . ولهذا عندما يتحدث الاقليميون عن تحرير فلسطين لايصدقهم أحد ويسخر منهم العـالم كله .والعالم على حق لان الاقليمية المستقلة بمصيرها عن فلسطين تكون غيـر منطقيـة عنـدما لاتترك فلسطين لمصيرها المستقل . ان على الشعب العربى فى كل مكـان أن يفلـت مـن شـراك التضليل ولو احتراما لارواح الشهداء من ابنائه الذين راحوا ضحية التضليل الاقليمى . والحقيقـة أننا مادمنا متفقين على أن التجزئة قد سهلت غزو فلسطين . فيجب أن نعرف ونعترف بأن الغـزو الصهيونى لفلسطين قد بدأ واتسع ومايزال قائما فى حماية الاقليمية العربية التى تجسد تلك التجزئة . واذا كنا متفقين على أن الاقليمية العربية مشتبكة فى صراع ضد الصهيونية دفاعا عن استقلالها ، فيجب ن نعرف ، ونعترف بأن هذا الاستقلال لايعنى أنها ستخوض معركة تحرير فلسطين ، بـل يعنى أنها طالما بقيت فى الوطن العربى فستحول ، بكل الطرق، من أول المغالطة اللفظية الى آخـر التصفية الجسدية ، دون التحام القوى القومية لدخول معركة تحرير فلسـطين ، أى أن اسـتقلالها ذاته يحول دون تحرير فلسطين . وأنها يجب ان تسقط لتقوم دولة الوحدة حتى تتحرر فلسـطين .

أما الاقليمية الفلسطينية فلها مصلحة مؤكدة فى تحرير فلسطين ولاشك فى أنها ستقاتل ماستطاعت لتحرير فلسطين ، ولكن الاقليمية ستخذلها . الاقليمية فيها والاقليمية خارجها . هذا لاشك فيه . ان شعار الاستقلال عن الدول العربية بمعركة تحرير فلسطين يتضمن حتما استقلال الدول العربية عن معركة تحرير فلسطين . وليس صحيحا أن يقال أنه مع ذلك لايعنى الاستقلال عن الجماهير العربية ولايحول دون التحامها فى معركة تحرير فلسطين . لان مجرد الدعوة الى التحام الجماهير العربيـــة يعنى دعوتها الى كسر القيود الاقليمية وهو أمر يمس صميم وجود الدول الاقليمية ويتنـــاقض مـــع استقلالها عن فلسطين واستقلال فلسطين عنها . ان كان هذا تكتيكا فهو تكتيك فاشل لانه ينطـــوى على مغالطة مكشوفة . وكل تكتيك ناجح يجب أن يكون منضبطا عقائـــديا واســـتراتيجيا والا فهـــو مغـــــــــــــــــــامرة أو مقـــــــــــــــــــــــامرة .

الحل القومى ، اذن ، هو الحل الصحيح لمشكلة تحرير فلسطين . فهل هناك موضع فى هذا الحـــل لمشكلة الاقامة فى فلسطين المتحررة . تلك المشكلة التى يقدمون لها صيغة فلســـطين المســـماة" ديموقراطية":، حلا يرضى ــ فيما يقولون ــ الرأى العام العالمى ؟.. ان حلهـــا القـــومى واضـــح وصريح . اذ بمجرد أن ننسى التمييز الدينى والعنصرى تقدم لنـــا" القوميـــة" الحـــل لصـــحيح . فالقومية لاتقبل الاستقلال الاقليمى لفلسطين عن الامة العربية وفلسطين الاقليمية فاشلة من الان فى حل مشكلة الاقامة فيها . فهى" دويلة" يواجه فيها مليونان من المجنى عليهم مليونين من الجناة حول جسم الجريمة : الدار المهجورة وقد سكنت ، والارض المتروكة وقـــد زرعـــت ، والامـــوال المنهوبة وقد أصبحت أموال الاخرين . ثم يقال لهم لاتذكروا ماكان وعيشوا " ديموقراطيين" .كأن الديموقراطية تعويذة سحرية تطهر النفوس بأمر من القائلين . ان فلسطين مهما تكن أرض السلام ستضيق بمن فيها وتنتهى حرب التحرير لتبدأ الحرب الاهلية فى أرض فلسطين . .القومية لاتقبـــل الا دولة الوحدة ودولة الوحدة أكثر رحابة من فلسطين . وفى دولة الوحدة مكان لكل الذين يريدون أن يعيشوا آمنين . هذا من ناحية .. ومن ناحية أخرى فان للامة العربية أبناء مـــن اليهـــود فـــى فلسطين المحتلة وفى أماكن كثيرة من الارض. اولئك العرب اليهود . انهم يحملون لسبب أو لآخر الهوية لاسرائيلية أو هويات اخرى أجنبيه . وهم لسبب أو لآخر قد انتقلوا الى فلسطين أو غادروا الارض العربية الى اماكن أخرى .كل هؤلاء عرب بصرف النظر عن معتقداتهم الدينيـــة . ولكـــل هؤلاء حق قومى فى أن يقيموا فى رحاب أمتهم وعلى وطنهم العربى فى فلسطين أو فـــى غيـــر فلسطين . ولكل هؤلاء حق فى أن تكون دولة الوحدة الاشتراكية الديموقراطية دولتهم القومية التى تحميهم ضد التعصب وتوفر لهم الامن وأسباب التقد م الاجتماعى .وكل هؤلاء مطالبون بأن يعبروا عن ولائهم لامتهم ، وأن يرتفعوا بوعيهم الى مستوى المسؤولية القومية ،وأن يعرفـــوا أن أرض

فلسطين هى أرض أمتهم العربية ، وأن لهم حق الاقامة فيها سواء كانوا فيها من قبل ، أو كـــانوا وافدين اليها من أقطار عربية أخرى. وأن من حقهم أن يعودوا اليه ، أو الىمكان من الوطن العربى ان كانوا قد غادروا أرضهم العربية . بل انهم فى القومية سواء مع اخوانهم العرب الذين أكرهــوا على مغادرة فلسطين ، لافضل لأحد منه على الآخر الا بقدر مايجسد فكرا ومســلكا ولاءه القــومى لامته العربية . وحتى الذين تورطوا منهم فوجدوا انفسهم فى مواقع الخيانة لامــتهم ، ويقتلــون اخوتهم العرب طاعة لسادتهم الصهاينة فان جزاءهم سيكون متعادلا مع ماكان لهم من حرية فـــى الاختيار ، وعلى مايكون لهم من موقف يختارونه فى الصراع العربى ضــد الغــزو الصــهيونى . ولكنهم فى كل الاحوال لن يكرهوا على مغادرة أرضهم العربية ولن يفتقدوا حماية دولة الوحــدة .

أما الذين خانوا وطنهم فهجروها ، وجاءوا غزاة للوطن العربى فلا مكان لهم فى الارض العربيــة وعليهم أن يلحقوا بأممهم حيث كانوا ولسنا مطالبين بأن ندفع لهم ثمن الخيانة أو أن نقــدم لهــم مكافــــــــــــأة علـــــــــــــــى العــــــــــــــــدوان .

ذلـــــــك هـــــــو الحـــــــل الســــــلمى الوحيــــــد المقبــــــول قوميــــــا .

وهو حل لانبتكره نفاقا لدفاع السلام . انما نقدمه دليلا على سهولة الاهتداء الى الحلــول الســلمية الصحيحة من الموقف القومى العقائدى لانه الموقف الصحيح . وليس أدل على أنه الحل الســلمى الصحيح من أن المهاتما غاندى كان رمزا خالصا للسلام الانسانى مع أنه لم يكن عربيا قوميا قال غانــــــــدى فـــــــى 14 تمـــــــوز (يوليــــــــو) ســـــــنة 1946 :

"ان فلسطين للعرب بذات المعنى الذى تعتبر فيه انجلترا للانجليز وفرنسا للفرنسيين انه لخطأ بين ، وأمر غير انسانى ، أن يفرض اليهود على العرب . أن مايجرى فى فلسطين اليــوم لايمكــن أن يوجد له مسوغ من أى قانون اخلاقى للسلوك .. انها لجريمة ضد الانسانية أن يقبر العرب الاعزاء لكى يتخذ اليهود كل فلسطين أو جزءا منها وطنا قوميا لهم أ ن التصرف ألامثل هو الاصرار على معاملــــة اليهـــود معاملــــة عادلــــة فـــى أى مكـــان ولـــدوا ونشـــأوا فيـــه . "

ونحن باسم القومية العربية نصر على معاملة اليهود العرب معاملة عادلة فـــى وطــنهم العربـــى وماعلى الامم الاخرى الا أن توفى بمسؤولية السلام فتحمى أبناءها اليهود من التعصب ضد السامية ، وبهــــــذا تحــــــل المشــــــكلة ويســــــود الســـــــلام .

ان دعوتنا القومية اذن دعوة سلام فى جوهر ها,واننا لمسؤولون قوميا عن تحرير العرب اليهـود من القهر العنصرى المفروض عليهم فى أرض فلسطين .ومسؤولون قوميا عن عودة العرب اليهود الذين غادروا وطنهم العربى وتعويضهم عن أى عسف لم يحترم انتماءهم القومى للامـة العربيـة .ولكننا غير مسئولين على أى وجه عن ارضاء التعصـب الاوروبـى ضـد اليهـود أو التعصـب الصهيونى ضد البشر جميعا . بأن نقيم للصهيونية دولة فى أرضنا ، سواء فى فلسطين أو حتى فى الربع الخراب من الصحراء القاحلة . لاأحد يملك هذا ولا أحد يستطيعه فان جنحوا الى السلم جنحنا . وان اصروا على البقاء اكرهناهم على العودة الى أوطانهم ونعد لهـم مانسـتطيع مـن قـوة .

أهـــــى عـــــودة الـــــى شـــــعار القـــــائهم فـــــى البحـــــر ؟
ان هذا لايتوقف علينا ، ولكن على الطريقة التى يختارونها للجلاء عن الارض العربية . وعلينا أن نكف عن النفاق باسم الانسانية فان الحرب ليست مباراة رياضية بل هى صراع وحشـى ومجـزرة بشرية . وان كان ثمة من يدعى الانسانية نفاقا فليبحث أولا عن المسؤول عن المجازر البشـرية والعـــــرب لـــــم يكونـــــوا أبـــــدا مســـــؤولين .

فى أواخر الحرب الاوروبية الثانية كانت أغلبية اليهود الالمان فى سجون النازية . وكانت النازيـة فى مأزق اقتصادى وعسكرى لايمكنها من الابقاء عليهم ، فاتفقت النازية والصهيونية فى مفاوضة مباشرة جرت فى سويسرا على ترحيلهم من المانيا .وعرض الامر على الحلفاء ، فأحالوه الى لجنة برئاسة اللورد موين الانجليزى .ثم استقر الرأى على أنه بالرغم من مخاطر الابادة الجديـدة التـى تعدها لنازية للتخلص منهم الا أن ترحيلهم من المانيا سيخفف عنها بعض متاعبها ويعوق انتصـار الحلفاء وقرروا جميعا ترك اليهود للموت فأبيدوا بالوحشية التى نذكرها . ونذكر أيضا ان لحركـة الصهيونية طـاردت مـن أجـل هـذا للـورد مـوين حتـى قتلتـه فـى شـوارع القـاهرة .

انهـا الحـرب والصـهاينة أول مـن يعلمـون هـذا ويعاملوننـا وفقـا لـه

فاذا كان واحد من العرب قد قال ــ أخيرا ــ اننا سنلقى الاسرائيلين فى البحر فليتذكر المنافقون أن الزعيم الصهيونى وايزمان قد قال:" لا أذيع سرا اذ قلت أننا اتفقنا مـع بريطانيـا علـى تسـليمنا فلسطين خالية من العرب قبل نهاية الانتداب". وأن الزعيم الصهيونى جابوتنسكى قال:" ان فلسطين يجب أن تكون لليهود أما العرب فلهم الصحراء .ان اتباع سياسة اللين مع العـرب للتوصـل الـى اركان الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ثم اجلاء العرب عنها تدريجيا مع الزمن سياسة مملـة يطول شرحها لانه اصبح معروفا لدى العرب ماهى الغايات التى يسعى اليها اليهود ولذلك بات مـن

الضرورى مجابهة العرب بالامر الواقع وافهامهم ضرورة الجــلاء الــى الصــحراء ".ون الــزعيم الصهيونى اسرائيل زانكويل قال": ان فلسطين وطن بلا شعب فيجب أن تعطى لشــعب بــلا وطــن وواجب اليهود فى المستقبل أن يضيقوا الخناق على سكان فلسطين العرب حتى يضــطروهم الــى الخروج منها" وان الزعيم الصهيونى سيملانسكى قال:" ان فلسطين يجب أن تكون وطنا للشــعب اليهودى وأنه من الممكن نقل أهل فلسطين العرب الى الاقطار العربيــة المجــاورة".وان الــزعيم الصهيونى مناحم بيجين قال": ان مذابح الاسر العربية عمل رائع من أعمال الاستراتيجية العسكرية ".وان الزعيم الصهيونى بن جوريون قال:" علينا أن نتلقن الدرس بأن الهزائم العسكرية فــى حــد ذاتها لاجدوى من ورائها مالم يعقبها اجراء فعال وعلينا ان نستخدم الانتصارات العسكرية كأساس للتوطن السكانى الذى لايمكن اغفاله" . وأنه فيما بين يــومى 1948/11/11 و 1966/11/17 أصدرت الجمعية العامة للامم المتحدة ثمانية عشر قرارا بعودة الشعب العربى الى فلســطين فقــال الزعيم الصهيونى أبا ايبان": حتى لو صوتت الامم المتحدة بنسبة 121 الى واحد فلن نقبل قرارها ".

فهــــــل فقـــــــدوا بهـــــــذا كثيـــــــرا مـــــــن الـــــــرأى العـــــــام العـــــــالمى ؟

لنكف اذن عن" النفاق" باسم الانسانية فان النفاق لايخدع أحدا ان الاوربيين الذين يريدون كســبهم نفاقا هم الذين القوا باليهود فى الافران الموقدة وليس فى البحر . وهم الذين أهلكوا مــن أنفســهم خمسين مليونا فى حربين خلال ربع قرن دفاعا عما يعتقدون أنه حق . وتعلموا من كــل هــذا أن دعــوة الحــق التــى تهــرب مــن حلبــة الصــراع دفــاع عنــه دعــوة منافقــة .

ولنقلها صريحة قاطعة اذا فرض علينا العالم أن نختار بين أن يذهب العرب الى جوف الصحراء أو أن يذهب الصهاينة الى أعماق البحر فليذهب الصهاينة الى أعماق البحر . ولن نكون المسؤولين . بــــــــــل العــــــــــالم هــــــــــو المســــــــــؤول .

* * *

الحرب الأخيرة

الآن وقد مضى اكثر من عام على حرب تشرين (اكتوبر) 1973 وهدأت الانفعالات الايجابية والسلبية التي اثارها النصر المحدود الذي تحقق . اصبح من الممكن الحديث عن الحرب التي مضت من اجل الحرب القادمة حديثاً هادئا وموضوعيا نضعه تحت انظار جميع الاطراف المعنية، ونوجهه الى جماهير أمتنا العربية الاصيلة الغائبة. ما الذي حدث في حرب تشرين (اكتوبر) 1973. في الساعة الثانية بعد ظهر يوم 6 تشرين (اكتوبر) 1973 اشتبكت جيوش مصر وسوريا مع جيوش العدو الصهيوني في حرب رابعة اكثر ضراوة من الحروب الثلاثة السابقة (1948 - 1956 - 1967) وان كانت تكرارا لها من حيث هي اسلوب . واستطاعت القوة العربية ان تقتحم القناة وان تدمر خط بارليف وان تطارد جند الصهاينة الى ان توقف القتال بناءً على قرار مجلس الامن رقم 338 الصادر في 22 اكتوبر 1973 .

وكما حدث من قبل لم يستجب العدو للقرار الى ان كسب أرضا جديدة انسحب منها بعد ذلك نتيجة مساع دبلوماسية ووقف الامر عند الحد الذي هو عليه الان. في خلال تلك الحرب تلقت الدول العربية المحاربة اقصى تأييد. ممكن من باقي الدول العربية. لم تتخلف دولة عربية واحدة عن الاسهام في المعركة بما تستطيع وتقبل . وبلغ التعاون العربي ذروته. وثبت من كل هذا ان الدول العربية قد اختارت اكثر الظروف ملاءمة لمعركتها الرابعة. نجحت تماماً في بناء قواتها المسلحة وتدريبها وتسليحها فأنزلت بالصهاينة خسائر فادحة واوقفت التفوق" العسكري الاسرائيلي وحطمت هيئة المؤسسة العسكرية الصهيونية وجرعت الآباء والامهات في اسرائيل كؤوس الاحزان التي كانت حتى ذلك الحين مقصورة على شاربيها من العرب. ونستطيع ان نقول انها دست في افئدة كثير من الاسرائيليين بذور الشك في الحل الصهيوني لمشكلاتهم . ثم انها نجحت تماما في كسب الرأي العام العالمي لمعركتها . الصين معها وتتجاوزها. الكتلة الاشتراكية معها وهو كسب قديم . دول اوروبا الغربية على الحياد عامة وهو كسب كبير. دول افريقيا تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل تباعا وهو كسب على اي حال . ولم تبق الا الولايات المتحدة الامريكية التي وضعت ثقلها

العسكري في ميزان القوى في ميدان القتال فاعتدل شيئا ما لحساب اسرا ئيل حتى لاذت بحلفها مع الاتحاد السوفيتى تأمران بايقاف اطلاق النار فوقفت النار. والوضع ان لم يكن في صـــالح الـــدول العربية تماما ، فهو في غير صالح اسرائيل على وجه اليقين .

وهو كسب جديد للدول العربية بالقياس الى الحروب السابقة. ونجحت الدول العربية تمامـــا فـــي استثمار العلاقات فيما بينها وبين الدول الاجنبية، فقدمت الدول العربية كل ما استطاعت وقبلت من عون مالي وزادت دول البترول فقررت تخفيض الانتاج وحجبه عن امريكا وهولنده.... والحصـــيلة النهائية انها كسرت جمود الموقف السابق على 6 تشرين (اكتوبر) 1973وجعلت من عام 1973 عامها هي بدلا من عام اوروبا فتلقت وعداً مضمونا من الثنائي السوفيتي الامريكي بتطبيق قـــرار مجلس الامن رقم 242 وما تزال تنتظر الوفاء بالوعد المضمون . فـــي ظـــل الظـــروف الدوليـــة والعربية التي وقعت فيها حرب تشرين (اكتوبر) انتصرت الدول العربية على اســـرائيل. انتصـــرت بمعنى انها خططت واعدت وقاتلت وحققت ما تريد من القتال . وهذا نصر بالنسبة الى صاحبه. انه النصر الممكن منسوبا الى الدول العربية. وهذا يعني بوضوح انه اذا كان ثمة من لا يرضيهم مـــا تحقق في ساحة القتال او على المستوى السياسي فان عليهم ان يسلكوا الى ما يريدون طرقا اخرى لا تمر بالدول العربية وقيود الاقليمية التي تكبلها . ان اي انسان على قدر مـــن الـــوعي بحقـــائق الظروف العربية القائمة وبوجه خاص حقائق الاقليمية لا يمكن ان يحمل الدول العربية اكثـــر ممـــا تحتمل موضوعيا او ان يتوقع منها اكثر مما تستطيع .

والدول العربية في واقعها الاقليمى لا تستطيع الا ان تستثمر امكانياتها المتاحـــة ماديـــا وبشـــريا ودوليا باكبر قدر من الكفاءة . ولا تستطيع ان تحقق من الغايات الا ما يقع في حدود امكانياتهـــا. سواء كان هذا في ساحة القتال أو في مجال التعاون المتبادل فيما بينها أو في خضـــم الصـــراعات الدولية وموازينها الثقيلة. وقد استثمرت الدول العربية امكانياتها بأكبر قدر من الكفاءة . كفاءتهـــا هي وحققت من الغايات ما يتفق مع تلك الامكانيات الموضوعية والذاتية فلا يمكن ان ينكر عليهـــا احد - بحق نصرها الذي تم . نقول هذا لنؤكد امرا ونطرح امرا ثانيا . الامر الاول انه لم يحدث من الدول العربية تقصير جسيم كان كفيلاً - لو لم يقع - بتغيير النتائج النهائية تغييرا كبيرا سواء فـــي ساحة القتال او في النتائج السياسية التي ترتبت عليه. ان الجزئيات هنا غير ذات اهمية كبيرة في تحديد الصورة النهائية للموقف. فلا ينبغي أن نتجاهل الموقف العام لنسند الى فرد أو مجموعة من الافراد أو دولة أو مجموعة من الدول اخطاء. قد تكون صحيحة ولكنهـــا علـــى اي حـــال ليســـت حاسمة. ما وقع كما هو يمثل غاية طاقة الدول العربية المحاربة كما هي في احسن ظروفها. حتى الدول العربية التي لم تحارب لم يكن موقفها السلبى من القتال المسلح بخلا بأرواح رعاياها ولكنه كان تجسيدا لواقعها الموضوعي .

انها ببساطة عاجزة موضوعيا عن القتال المسلح. وبالتالي لا محل لفتح أبواب الاوهام الاقليمية من جديد. لو كان فلان غير فلان، لو كان اولئك مكان هؤلاء - لو وقفت هذه الدول ذلك الموقف لاستطاعت الدول العربية ان تحقق اكثر مما حققت. ابدا ما كان يمكن تحت اي ظرف ولن يكون ممكنا تحت أي ظرف ان تحقق الدول العربية اكثر مما حققت في ظروفها الدولية القائمة. لانها - في الواقع - قد حققت ما حققت في افضل الظروف توقيتا وتسليحا وقتالا وتعاونا ودبلوماسية . ان القومية ليست مثالية. والموقف القومي ليس موقفا مثاليا وابعد ما يكون عن الموقف القومي ذلك الموقف المثالي الذي يتوقع من الدول العربية الاقليمية اكثر مما حققت :

تحرير فلسطين مثلا او تحدي ارادة الدول الكبرى مثلا آخر... او الا ستمرار في القتال بعد ان صدر اليها امر مجلس الامن مثلاً ثالثا... الخ . ثم يأتي الامر الثاني الذى نطرحه ونتمنى ان يحظى بالعناية من كل الجماهير العربية التي ما تزال تحتفظ بولائها لامتها العربية. التسوية السلمية التي تتضمن الاعتراف بالوجود الاسرائيلي او بضمان امنها لن تتم . بالرغم من كل المحاولات التي يبذلها المجتمع الدولي عامة وكل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية خاصة وبالرغم من كل النوايا الخفية والمعلنة التي تسعى الى مثل تلك التسوية وبالرغم من كل الاغراءات والانتصارات التي تقدم - او تحققها ثورة الشعب العربي في فلسطين فان الاعتراف بالوجود الاسرائيلي أو ضمان امنها أو فتح المياه العربية لعملها.. الى اخر ما جاء في القرار **242** لن يتم . ان لهذا التأكيد اكثر من سبب وتتصل الاسباب بجميع الاطراف المعنية كما تتصل اساسا بقوى قادرة تماما على ان تحول دون تلك التسوية. وا نه لمن مصلحة جميع الاطراف ان يكونوا على يقين من هذا. الحرب الخامسة اذن قادمة. قد تشنها اسرائيل تحاول ان تحقق فيها نصرا محدودا يعوض الاثار الداخلية المتردية التي سببتها هزيمتها المحدودة . وقد تشنها دول المواجهة العربية لكسر الجمود السياسي الذي تدفن فيه رويدا رويدا قضية ازالة اثار العدوان . في هذه الحرب المتوقعة ستلقي الدول العربية - مرة أخرى - بخلاصة الشباب من أمتنا العربية في أتون المعركة. وستستنزف - مرة أخرى - أغلب الطاقات الاقتصادية المتاحة لتحقيق نصر محدود جديد كل غايته أن يمنح من دماء عشرات الالوف من الشهداء، وعشرات الملايين من الجنيهات ،" حقنة" تقوية لبعض المتسابقين العرب في مضمار المناورات السياسية. كل غايته أن يغذي اوهام الامل في تحرير فلسطين على ايدي الدول العربية ويمد في حياتها حتى يحين حين الجولة السادسة. لا. اني اقولها لكل الذين رخص عندهم الانسان العربي الى الحد الذي يدفعون به الى الحروب لا من اجل النصر لامته ولكن من اجل تقوية مراكزهم في المساومات الدبلوماسية. لا. ان حياة جماهيرنا العربية أغلى بكثير من أن نكون مجرد ورقة في لعبة المناورات السياسية . لا . يكفي الدول العربية ما بددت من طاقات وما أنفقت من أموال وما أهدرت من دماء بحجة أنها تريد تحرير فلسطين . لا . يكفي الدول العربية ما فرضت من قهر على جماهيرنا وما استنزفت من طاقاته وما

أقتطعت من قوته بحجة أنها تشتبك في صراع مع الصهيونية من أجل تحرير فلسطين . لا . اننـا لانريد أن تحكم إسرائيل جماهيرنا العربية بطريقة غير مباشرة عن طريق" اعتذار" الدول العربيـة بالصراع ضد اسرائيل لتغطية ما ترتكبه في حق جماهيرنا العربية من جرائم . ان من حق شـعبنا العربي أن يوقف هذه اللعبة المدمرة والتي كان هو ضحيتها دائماً . من حقه أن يحول بكـل قوتـه دون أن تبقى إسرائيل أداة لاستنزاف طاقاته دورياً ، فكلما بنى هدمت ، وكلما نشأ له جيـل جديـد دخل به حرباً جديدة ، وكلما حاول أن يتقدم توقف ليقاتل معاركه المحدودة . من حق شعبنا العربي أن تكون الحرب الخامسة هي" الحرب الأخيرة" ليتفرغ بعدها لبناء الحياة التقدمية رخاء وحرية . ان هذا يعني أن تكون غاية" الحرب الأخيرة" لـيس مجـرد تحريـك للقضـية علـى المسـتوى الدبلوماسي ، ولا إزالة آثار عدوان 1967 ، ولكن استرداد أرض فلسطين للشعب العربي . إذ من وجهة النظر القومية لا نفهم ما يقال له الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني إلا استرداد أرضـه المغتصبة . وبمنتهى الوضوح لايتم هذا إلا بتصفية دولة اسرائيل ، أما ما يتلو هـذا مـن قضـايا فرعية مثل مصير البشر الذين جمعتهم الصهيونية على أرض فلسطين أو كيفيـة التعـايش بـين الأديان على الأرض العربية فكلها مشكلات ثانوية أو سهلة الحل وليس في التقاليد العربية ما يحول دون الوقوف منها موقفاً انسانياً وحضارياً . المهم أن تكون الغاية الثانية للحرب الخامسة تصفية" الدولة – المؤسسة" التي تجسد السلطة الدخيلة وتحرم الشعب العربي من دولته التي تجسد سيادته المشروعة على ارضه .

واضح ان اسلوب الدول العربية الذي مارسته منذ سنة 1948 وحقق اقصى عطائـه فـي حـرب تشرين (اكتوبر) 1973 لن يحقق تلك الغاية لاسباب موضوعية لا يجدي تجاهلهـا أو المـزاودة عليها. اذن فان تغييراً حاسما وجذريا يجب أن يتحقق في الوطن العربي كشرط سابق للنصر فـي الحرب الخامسة. أول عناصر هذا التغيير واهمها أن تدخل الجماهيرالعربية ذاتها الحرب الخامسة. ان تكون صاحبتها جندا وقيادة وان ترسم هي استراتيجيتها وتخوض هي مواقعها التكتيكية وتعبىء هي مواردها وتوظفها في سبيل أن تكون الحرب الخامسة التي هي حربها الاولى، حربها الاخيرة. ليست هذه دعوة الى ما يسمى حرب التحرير الشعبية . ان حرب التحرير الشعبية مستحيلة علـى الارض العربية لسبب بسيط هو أن جيوش الدول العربية تحول - بـالقوة - دون حـرب التحريـر الشعبية ولكنها دعوة الى قيام دولة واحدة جماهيرية تخوض الحرب الخامسـة والاخيـرة. دولـة واحدة تضم اقاليم مصر وسورية والاردن وفلسطين . نعم فلسطين . ان هذا هو الاستثمار القـومي التقدمي الامثل للاعتراف العالمي بان منظمة تحرير فلسطين هي الممثل الشرعي الوحيـد للشـعب الفلسطيني. انها الان تملك أن تدخل في وحدة فتصبح فلسطين المحتلة جزءاً من دولة عربية واحدة من حقها تحرير قطعة من ارضها .

نقول ان مثل هذه الدولة كفيلة بتحقيق النصر النهائي الحاسم في الحرب الخامسة - الاخيــرة - ان هذه الدولة لا تحل فقط مشكلات الموازين الدولية الضاغطة ومشكلات التسليح الاسرائيلي الكثيف ، بل ستحل ايضا مشكله" الناس" الذين سيتخلفون على الارض العربية بعد تصفية دولة اســرائيل ، ولن يكون حل مشكلاتهم حينئذ على حساب الشعب العربي الفلسطيني وحده . ضد هــذه الــدعوة ستقدم الدول العربية وأجهزتها الاعلامية مئات الحجج من اول الحساسيات الشخصية الى ضرورة أن تسبق الوحدة دراسات متأنية لاثارها على التجارة والنقد ومناهج التعليم والنظم الاقتصــادية... الخ . عندئذ تتبين الجماهير العربية حقيقة موازين الدول العربية. ليس لدى الدول العربية مانع من أن تقاتل بأبناء أمتنا عشرين سنة في معارك محدودة النصر محدودة الهزيمة، وتســتنزف طاقاتــه عاما بعد عام وتحكمه بحجة تحرير فلسطين . ولكن لديها موانع كثيــرة مــن أن تفــتح حــدودها وتستغني عن مقاعد السلطة فيها وتقبل" هزة" في نظمها التجارية وسعر عملتها ولو مــن أجــل النصر النهائي على الصهيونية. ليس لدى حكام العرب مانع من أن يموت من كــل جيــل عربــي عشرات الالوف من الشباب ، وان يسخر عائد الانتاج العربي في شراء الاسلحة، وان يجوع الشعب العربي ويقهر سياسيا واقتصاديا وفكريا من اجل تحرير فلسطين ولكن لديهم ألــف مــانع مــن أن يفقدوا مراكزهم كحاكمين ولو كان ذلك هو الطريق الوحيد لتحرير فلســطين . لا. فلتقــل الــدول العربية ما تشاء فان دعوتنا ليست موجهة إليها . انها دعوة الى الجماهير العربية فــي أن تختــار بين حروب محدودة متكررة كل عشر سنوات أو اقل أو بين حرب أخيرة تتفرغ بعدها لحياة الحرية والرخاء. ان تختار بين الوحدة وبين التجزئة بين القومية وبين الاقليمية. وهي اذ تختار انما تختار بين النصر والهزيمة. فلتختر الجماهير العربية الوحدة ، طريق النصر، من أجل أن تكون الحــرب الخامسة هي الحرب الاخيرة

الحياد المستحيل

لا تكاد توجد في العالم - الآن - قوة نشيطة ليست طرفا في قضية فلسطين . فبالاضافة الى جماهير الامة العربية - الطرف الاصيل الغا ئب - ومنظمة تحرير فلسطين، والدول العربية، ودولة الصـــها ينة ومنظمتهم العالمية، والدولتين المسماتين" الا عظم" ، تشارك كل دول العالم الآخر، واحزابها، ومؤسساتها الاقتصادية والاعلامية والثقافية في محاولة ايجاد حل لمشكلة فلسطين . وسيكون مـــن غير الواقعي توهم أن فلسطين بذاتها كموقع جغرافي قليل المساحة على الساحل الشـــرقي للبحـــر الابيض المتوسط ، أو منظمة تحرير فلسطين أو فصائلها المقاتلة هي التي جذبت الى الساحة كـــل تلك الاطراف أو أجبرتها على المشاركة في الصراع الدائر حولها. الواقع غير هذا الواقع أن السمة القومية الموضوعية لفلسطين مشكلة وحلاً قد فرضت نفسها على كل الاطراف.

أعني أن كون فلسطين جزءا من الوطن العربي وكون شعبها جزءا من الامة العربية، وما يعنيـــه هذا من وحدة موضوعية غير قابلة للانفصام بين الجزء والكل قد فرض على العالم كله ان يكـــون المدخل الى فلسطين مشكلة وحلا مدخلا عربيا وان يكون المدخل الى الامـــة العربيـــة سياســـيا أو اقتصاديا أو ماليا أو - على الاخص - بتروليا من خلال فلسطين المشكلة وفلسطين الحل . من هنا نجد ان كل من له مصلحة حالة أو يأمل أن تكون له مصلحة في أي مكان من الوطن العربي مـــن الخليج الى المحيط يجد أن فلسطين المشكلة قائمة على الطريق الى مصالحة وان فلســـطين الحـــل جزء لا يمكن تجاهله من حل مشكلاته الخاصة التي يبحث لها عـــن حـــل فـــي الارض العربيـــة. باختصار ان جاذبية الامة العربية هي التي فرضت على كل قوة نشيطة في العالم أن تكون طرفا في قضية جزء منها هي فلسطين . أو فرضت عليهم أن ينظروا الى مشكلة فلسطين في اطارها القومي العربي الصحيح . والغريب ان هذه الرؤية الموضوعية الصحيحة لمشكلة فلسطين اكثـــر وضـــوحا خارج الوطن العربي منها في داخله. فكل القوى العالمية، دولية أو سياسية أو اقتصاد ية أو دعائية أو حتى عسكرية، تأخذ الامة العربية ككل وتتحدث عن" العرب" كمجتمع واحد ، وتخطط وتتحرك على أساس انها تتعامل مع" أمة وا حدة" . وحتى عندما تحاول التركيز على تجزئتهـــا، وا ثـــارة الخلاف أو تعميقه بين دولها ، فهي تنطلق من التسليم بوحدتها الاجتماعية ووحدة مصيرها محاولة تفتيتها . ويحملون العرب - كعرب - مسؤوليات دولية بترولية مع أن البترول غير متواجد الا فـــي بعض الدول العربية . ويشهرون بالنمو المالي العربي بينما اغلب الشعب العربي يعـــيش فـــي دول تعاني من الندرة المالية. ويهددون بغزو العرب بدون أن يسموا دولة بعينها للغزو .

وقد اصبح كل هذا الطابع المميز لموقف دول العالم الى حد ان قد اختفت أو كادت تختفي في العالم كله ، دلالة الانتساب السياسي الى أية دولة عربية. لم يعد العالم يفهم من المصري ، والسوري ، والكويتي ، والليبي ، والجزائري ... إلى آخره ، إلا أنه أولاً وأخيراً عربي ويعاملونه على هذا الأساس . هذا في حين ان الحكومات العربية ما تزال فرحة بأعلامها المزوقة ، وبحدودها المصطنعة وباستقلالها الذي لا تستطيع حمايته . وبثرواتها التي لم تصنعها ، ويساوم بعضها البعض وينافس بعضها البعض، ويكيد بعضها للبعض، ويحاول كل بعض منها أن يفلت من المصير المشترك عن طريق الاحتماء بمن يظن أن في يده المصير. ثم إنها كلها تردد بدون ملل، وتعلن ما تردده على العالم كله مؤكدة في كل مرة وكل مناسبة، أن تقرير مصير فلسطين هو مسؤولية شعب فلسطين وحده، وانها وقد اعترفت بمنظمة تحرير فلسطين ممثلا وحيداً للشعب الفلسطيني، فان على المنظمة أن تكون طرفا اصيلا في أية تسوية، وان تحدد هي وحدها ماهية الحقوق المشروعة لشعب فلسطين. وان تقبل ما تقبل وأن ترفض ما ترفض ، وانهم معها في القبول والرفض ومهما يكن مضمون ما تقبله أو ترفضه وعليها وحدها في النهاية أن تتحمل مسؤولية الموقف الذي تختاره.. ويا أيها العالم " الغبى" لا تحملوا كل دولة عربية الا مسؤولية موقفها من " وطنها" وعلى وجه خاص لا تحملوها مسؤولية الموقف الذي يختاره شعب فلسطين .. فنحن لسنا - كما تظنون - أمة واحدة . يمكننا أن نقول أن ليس العالم هو الغبي وان أحدا لن يفلت من مصير أمته. ولكن هذا ليس ما نريد أن نقول . انما نريد هنا أن نخاطب، من مواقعنا ومواقفنا القومية، كل القوى التي تنشط مشاركة في قضية فلسطين وتبحث لها عن حلول . وخطابنا موجه - في الا ساس - الى الدول" الصديقة" عامة والى الدول العربية بوجه خاص .

وبكل اخلاص نتمنى أن ينتبه من نعنيهم الى ما نقول حتى نجنب علاقاتنا مع أصدقائنا مخاطر النكسات وحتى نجنب أمتنا العربية مزيدا من التضحيات. وقد أعذر من أنذر كما يقولون... ان الصراع العربي الصهيوني دار ويدور منذ اكثر من ربع قرن حول موضوع رئيسي واحد : من هو صاحب الحق في ارض فلسطين؟ هل هو الشعب العربي الذي كان يقيم فيها منذ عشرات القرون وطرد منها بالقوة منذ عام 1947 وما بعدها، أم هم الصهاينة الذين غادروا أوطانهم وتجمعوا على أرض فلسطين وطردوا الشعب العربي منها بالقوة وأ قاموا فيها دولة أسموها "اسرائيل"؟. هذا هو جوهر الصراع . انه صراع على الوطن . والوطن هنا ليس - ولم يكن أبدا - كلمة رومانسية فارغة من مضامينها الحياتية والحضارية. الوطن هو الارض بما فيه من ثروات كامنة، هو المزارع وحاصلاتها، هو المصا نع ومنتجاتها، هو امكانية تقسيم العمل في مجتمع مستقر تتكامل جهود ابنائه لتنميته، هو الامن والسلام والاستقرار الدي يسمح للشعب بأن يتفرغ لتوظيف موارده المادية

والبشرية المتاحة في وطنه من اجل التقدم الاجتماعى والاقتصادي والثقافي لشعبه. الـوطن لـيس محل اقامة بل امكانية تقدم مطرد. وعندما يفقد أي شعب وطنه يتحول الى افراد مشردين ويفقد كل امكانيات التطور. من هنا لا يكون الصراع من اجل الوطن مجرد محافظة على تحفة اثرية موروثة من الماضي أو استجابة لشعارات عاطفية بعيدة عن واقع الحياة ، بل هو صراع من أجـل امكـان الحياة السوية والتقدم الاجتماعي ، وحتى الكلمات الكبيرة المتداولة - بكثرة - في الحديث العربـي عن الوطن والوطنية، مثل العزة والكرامة والعار وما اليها ليست الا رموزا لحيـاة اجتماعيـة ذات مضامين عينية اقتصادية واجتماعية وثقافية يمثل الوطن وعدأ بتحقيقها لكل مواطن فيه .

اذن فعندما يسلب الوطن لا يكون السلب واقعا على ما كان لنا في الماضي فحسب، بـل يكـون - فوق هذا - سلباً لما يمكن أن يكون لنا في المستقبل من فرص التقـدم الاجتمـاعي . انـه سـلب للمستقبل أكثر منه سلب للماضي، ولهذا يستحق الدفاع عن الوطن ثمنه الفادح: الحياة نفسها... في هذا الوعد المستقبلي للتقدم رخاء وحرية المرتبط بالوطن تصبح كل ذرة من تراب الوطن ذات قيمة أصيلة ومتساوية مع كل ذرة أخرى . تستوي في صدق هذا الوعد الجبال الجرداء مـع المـزارع الخضراء، بعضها يستمد قيمته من واقع ما يمنح لابنائه وبعضها يتضمن في احشائه اجابات غيـر محددة عن دوره الحضاري المقبل . لهذا يستحيل على أي شعب في الارض أن يفرط في أي جـزء من أرضه. ومن قبل ا ندلعت شرارة الحرب الاوروبية الثانية من قرية دانزج واليوم ا نشق صـف المعسكر الاشتراكي وتواجه قوات الصين الشعبية حشود الاتحاد السوفيتي على الحدود بينهما مـن اجل كيلومترات محدودة من الارض الجرداء . وكما ينطبق هذا على كـل الاوطـان ينطبـق علـى فلسطين . ان هذا لا يعني أن المسألة تكون دائما معروضة في ساحة الصراع الفعلـي علـى هـذا الوجه فالاغلب أن يلف الصراع ويدور ويناور حول فرعيات أو مفردات الحق في الوطن : الحدود، الامن، الاقامة، نظام توظيف الموارد، المنافسة على موارد اضافية، الاستقرار الانساني ، السلام... الخ. أي ان الصرأع يدور عادة حول موضوعات تكتيكية أو جزئية أو مرحلية .

ولكنه لا يحسم نهائيا الا بحسم مضمونه الاستراتيجي . وفي مشكلة فلسطين بالذات استهلكت كـل المناورات التكتيكية والقضايا الجزئية خلال الاحداث الدامية التي لـم تتوقـف منـذ ربـع قـرن ، وأصبحت مفضوحة - الآن - كل محاولات العودة بالصراع الى تلك الساحات على حسـاب ماهيتـه الاصيلة، واقتربت كل القوى من مواجهة المشكلة على مسـتواها الاسـتراتيجي، وهكـذا اصـبح المطروح على كافة القوى ان تحدد موقفها من اصل المشكلة وتجيب على السؤال، الاساسي: لمن تكون ارض فلسطين، أللعرب - كما يسمونهم اليوم - أم للإسرا ئيليين؟ واصبح كل طرف – عربـي بوجه خاص - يريد أن يثير احدى القضايا الجانبية أو الفرعية كقضايا الحدود أو الامن أو السـلام مطالبا بأن يحدد موقفه بوضوح من خلال الاجابة على هذا السؤال الاساسي . وفي الاجابة على هذا

السؤال : لمن تكون ارض فلسطين؟ يسقط الموقف المحايد . انه مستحيل. فالصـــراع قـــائم بـــين طرفين يدعي كل طرف منهما انه - وحده - صاحب الحق في ذات الارض .

ومن هنا فان الاعتراف بان الارض من حق الشعب العربي ينفي نفيا صريحا، حتى لو كان غيــر معلن، حق الطرف الأخر فيها، والعكس بالعكس . فالذين يعترفون صراحة أو ضمنا بأن للصـــهاينة حقا في أرض فلسطين ينفون نفيا صريحا، حتى لوكان غير معلن، حق الشعب العربي في ارضـــه. ولما كان الحياد مستحيلا فلا يملك أي طرف إلا أن يكون منحازا مع أو ضـــد أي مـــن الطـــرفين . الاعتراف باسرائيل صراحة أو ضمنا، خفية أو علنا، ليس موقفا ايجابيا من الصهيونية فقط ، بـــل هو انحياز لها ضد الشعب العربى ينقل صاحبه، - سواء أراد هذا أو لم يرد – الى موقـــع العـــداء للشعب العربي ان كان اجنبيا ويوقع صاحبه في افخاخ الخيانة للشعب العربي ان كان عربيا. وليس الحياد مستحيلا على المستوى الذاتي فحسب، بل هو مستحيل أيضا على المستوى الموضـــوعي . فالحل النهائي للمشكلة يجب أن يكون موضوعيا حاسما للمشكلة حسماً استراتيجيا.

أعني ان المشكلة لن تحل نهائيا . ولايسود السلام الذي يتحدثون عنه كثيرا، الا بعودة الحق فـــي الارض الى اصحابه. أما الحلول" المحايدة" التي توفق أو تلفق بين الحق والاغتصـــاب وتســـتعلي على الصراع فتساوي بين طرفيه فانه قد يهدىء الصراع مرحليا، ولكنه سيسقط في النهاية عندما يتجدد الصراع اعنف مما كان . هذا اذا كان من الممكن اصلا توفيق أو تلفيـــق حـــل" حيـــادي" لمشكلة التحرر الوطني . وعندما تحل المشكلة حلها الصحيح بعودة الارض الى اصـــحابها يمكـــن حينئذ وحينئذ فقط وليس قبل هذا - حل المشكلات الفرعية ومنها مشـــكلة اقامـــة البشـــر والامـــن والحدود والجوار وتوظيف الموارد... الخ . أما قبل هذا فمستحيل . وفي هذا الاطار يمكـــن فهـــم الطرح العربي لحل مشكلة الاقامة في فلسطين المتحررة الذي حمل عنوان" دولة ديموقراطية" انها دولة عربية اولاً ، تعد، أو تلزم، بأن تكون ديموقراطية غير عنصرية، ولكنها ليست دولة اسرائيلية ديموقراطية وليست دولة مشتركة بين العرب والصهاينة ولو كانت ديموقراطية. وكل تفسير آخـــر لهذا الحل الذي قدمته الثورة الفلسطينية لمشكلة الاقامة على فلسطين المتحررة وعلى وجه خاص، كل تحايل باسم الديموقراطية على الموقف الوطني هو محاولة للحياد وهي فاشلة ومعادية ان كانت من مصدر اجنبي وهي خيانة ان جاءت من مصدر عربي . على ضوء هذا نستطيع أن نرى ان كل القوى النشيطة التي تبحث عن حل لمشكلة فلسطين متجهة الى الالتقاء في موقع الفشل المحقـــق، لانها جميعا تتجه الى حل حيادي مستحيل. أما على المستوى الدولي، ففيما عدا بضـــعة دول علـــى رأسها الصين الحليفة المجيدة للشعب العربي كانت الاجابة منذ سنة 1947 على سؤال لمن تكـــون ارض فلسطين : انها لاسرائيل وهو ما يعني تماما انها ليست للعرب. وضد هذا الموقـــف بالـــذات ناضل الشعب العربي وبذل تضحيات هائلة الى ان استطاع ان ينجح في أن يفرض على دول العالم

جميعا حقا في الارض يتحدثون عنه من منطلق الاعتراف به ولكن بـدون تحديـد ماهيتـه ومـع الاصرار - في الوقت نفسه - على ان لاسرائيل حقا في ذات الارض. فهو موقف قائم على محاولـة ايجاد " حل وسط حيادي " ينهي المشكلة - كما يتوهمون - بتقسيم ارض فلسطين بـين اصـحابها ومغتصبيها. أما على المستوى العربي ففيما عدا موقف قديم للرئيس بورقيبة - لم يصـر عليـه - كانت الاجابة منذ سنة 1947 ان ارض فلسطين، للعرب وهو ما يعني تماما انها ليست للصهيونية ومؤسساتها السياسية المسماة دولة اسرا ئيل . وضد هذا الموقف بالذات ا ستعملت كـل القـوى الدولية - فيما عدا الصين المجيدة وبضعة دول اخرى - كل ما استطاعت من وسائل التأثير الثقافي والدعائي والاقتصادي والسياسى لتقنع العرب، او تفرض عليهم، قبول الامر الوا قع - كمـا كـانوا يقولون - دولة اسرائيل على ارض فلسطين. وفي نطاق تحقيق هذا الهدف طرح" الاصدقاء" بدائل من الصداقة والدعم والمساندة وسيلا من دروس الثقافة الواقعية. ولجأ الاعداء الى اقصى أنـواع الردع فشنوا على الدول العربية ثلاثة حروب هزموها فيهـا (1948 - 1956 - 1967) وحـالوا بقوة السلاح دون اكمال نصرها في حرب 1973.

واستطاعوا ان يحتلوا مزيدا من الارض لتكون موضوعا للمساومة. وتدور المسـاومة الآن علـى الاساس الذي يطرحونه : استرداد سيناء والضفة الغربية والمرتفعات السورية في مقابل الاعتراف ، الصريح او الضمني، بالوجود الاسرائيلي على ارض فلسطين وضان امنه والتعامل معـه علـى اساس انه احدى دول" المنطقة" . اي ان الثمن المطلوب هو تقسـيم فلسـطين بـين اصـحابها ومغتصبيها. وهو ذات الحل الحيادي الفاشل الذي تراجعت اليه الـدول الا خـرى . ولا يمكـن ان يخطىء اي مراقب للموقف العربي حركة الدول العربية وهي تتجه الى حيث تلتقي مع" الآخرين" من غير العرب في موقع الفشل هذا. فهي قد انتقلت، او تراجعت، من موقف يصر علـى ان ارض فلسطين للعرب الى موقف يتحدث عن الحقوق المشروعة لشعب فلسطين بدون تحديد ماهية تلـك الحقوق . وهي قد انتقلت، او تراجعت، من موقف يطرح المشكلة على حقيقتها الاستراتيجية مـن حيث هي مشكلة تحرر وطني، الى موقف يستبدل بالاصل فرعياته، وبالاهداف الاستراتيجية اهـدافا تكتيكية واصبح الصراع يدور ويلف ويناور حول الامن وا لحدود والضمانات الدولية والتعـا يـش والسلام ... بل ان التقسيم - تقسيم ارض فلسطين بين اصحابها ومغتصبيها - قد طرح كحل مقبول من اكثر من جهة عربية .

وهكذا يوشك الحل الحيادي الفاشل ان يتحقق ، او هكذا يعتقد اطرافه. ونحن من مواقعنا ومواقفنا القومية، نحذر فنقول ان هذا الحل قد لا يتحقق اصلا كما تتوقعون فاننا لا نحسب الساحة العربيـة خالية من القادرين على منع تحقيقه، فلا تربطوا انفسكم بحل فاشل ان كنتم اصدقاء ولا تعرضـوا صداقتكم التي نعتز بها ونريد ان ننميها للعثرات، وان كنتم عربا فلا تعرضوا امـتكم لمزيـد مـن

التضحيات، ذلك لان مثل هذا الحل الوسط الحيادي لا يحسم القضية ولن يكون - اذا وقع - الا بداية صراع مرير ودام على الارض العربية. وفي مواجهة هذا التحذير ترتفع اصوات من الجانب العربي، ومن جانب الاصدقاء أيضا - متسائلة - وبحق - اذن ماذا نفعل؟.. هل ندخل حربا ضد العالم اجمع؟.. هل نترك الارض تحت الاحتلال الاسرائيلي لتغير واقعها وتهودها؟.. هل نترك ما هو ممكن في سبيل مستقبل لا نعرف حتى ما اذا كان قابلا للتحقيق ام لا؟..

ويضيفون بعصبية ساخرة: ان هؤلاء القوميين لا يفعلون شيئا الا التشدق بالكلمات الكبيرة وترويج الاوهام وتضليل العامة من الناس ولا يقدمون حلولا واقعية لمشكلات واقعية ويجهلون جهلا تاما علم السياسة الذي هو علم تحقيق الممكن وليس علم صياغة ا لكلمات ؟ اذن ، فيا أيها الاقليميون ، استمعوا الى ما نقول، ولنهبط جميعا لنتحاور على ارض الواقع حتى لوكان مرا. أننا لن نفرض عليكم او نتوقع منكم افكارنا او مواقفنا ولن نحاول ان نقنعكم بوسائلنا لحل مشكلة فلسطين، اننا ان نفعل هذا نكون مثاليين . والمثالية كما تقولون هي ارادة غير الممكن موضوعيا. ولكنا نقدم اليكم الحل الممكن طبقا لافكاركم انتم ومواقفكم انتم، لنثبت لكم اولا ان ثمة مواقف ممكنة بالنسبة اليكم ولكنكم لا تفعلونها، وانكم في مواقفكم الحالية لا تلتزمون حتى افكاركم ومنطقكم انتم، ثم نضع امامكم السؤال الكبير الخطير: لماذا تختارون - من بين كل الممكنات - الموقف الوحيد الذي تنحازون فيه ضد حق الشعب العربي في أرض فلسطين، ولماذا تصرون على هذا الموقف. وهو لا يتفق مبدئيا مع افكاركم ومنطقكم؟... يقوم الموقف الاقليمي على اساس الاعتراف بتجزئة الوطن العربي الى دول وا ستقلال كل دولة منها بأرضها، وبشعبها وبسيادتها على الارض والشعب. استقلالها عن كل دولة ا خرى سواء عربية أوغير عربية. وعلى المستوى الدولي يعتبر استقلال الدول ارضا وشعبا وسيادة حجر الزاوية في البناء القانوني للعلاقات الدولية، استقلالها عن غيرها وتترتب على هذا نتائج تحدد انماط السلوك" المشروع" في العلاقات الدولية، اهمها قاعدة مستقرة - بمعنى ان احدا لا ينكرها حتى لو حاول مخالفتها - هي ان سيادة كل دولة محدودة بالارض القائمة عليها وبالشعب الذي يحمل جنسيتها (هويتها)، وان تلك السيادة لا تمتد، ولا يجوز ان تمتد خارج تلك الحدود. ويسمون محاولة مد تلك السيادة الى خارج حدودها" عدوانا " او" تدخلا في شئون الغير"،000 الخ ولهذه القاعدة وجهها الأخر المعبر عنه بحق تقرير المصير. فحق تقرير المصير ليس حقا" داخليا" يمنح شعبا بعينه سلطة تقرير ما يريد، بقدر ما هو حق" خارجي" يمنح كل شعب سلطة رفض التدخل في شئونه ويلزم الآخرين بعدم هذا التدخل . في اطار هذه القواعد التي يعترف بها كل الاطراف المعنيين بحل مشكلة فلسطين يتحدد" الممكن" سياسيا ودوليا. وهو ممكن لانه - على الاقل - مشروع وتجاوزه غير مشروع .

وفي اطار هذه القواعد اختارت الدول العربية للشعب العربي في فلسطين ان يكون مسئولا عن تقرير مصيره وتعلن وتكرر ان منظمة تحرير فلسطين هي الممثل الوحيد لشعب فلسطين . كما اعترفت الدول بهذا ولو ضمناً عندما استقبلت قائد المنظمة في هيئة الأمم واعطت الشعب الفلسطيني مقعد المراقب. وترتب على هذا التزامها بعدم التدخل في شئون فلسطين . اي ان الدول العربية وغالبية دول العالم اختارت واعلنت استقلال الشعب الفلسطيني بتقرير مصيره، فاختارت واعلنت في الوقت نفسه استقلالها عن فلسطين ارضا وشعبا. فليكن ما داموا يصرون .

أين هو اذن الموقف الممكن الذي يتفق مع هذا المنطق" الاستقلالي" دوليا" الاقليمي" عربيا ؟..

لا يحتاج الامر الى عناء كبير لتعرف إنه الموقف الذي يلزم كل دولة حدود سيادتها ويحول دون مدها الى ارض فلسطين . بوضوح اكثر انه موقف يتلخص في ان تكف كل الدول - اجنبية او عربية - عن" تشكيل" مصير فلسطين أرضا وشعبا وتنتبه الى مشكلاتها الخاصة وتلتزم بحدود سيادتها. فلا تتحدث عن ، ولا تساوم او تقايض على، ولا تقسم او تمنح ارضاً غير ارضها لمن تشاء في مقابل ما تريد من مصالح تحررية او اقتصادية او مالية او سياسية بأكبر قدر من الوضوح، انه في" نطاق القواعد السابقة الاستقلالية دوليا والاقليمية عربيا، لا تكون ارض فلسطين ملكا أو تحت سيادة او خاضعة لارادة اية دولة عربية او غير عربية، وبالتالي يمتنع عليها جميعا ان تدخل مصير فلسطين في حسابات مصالحها وان تمد ارادتها او سيادتها الى ارض فلسطين. ولنترجم هذا الى موقف" عملي "... ونخص بالترجمة ا لدول العربية... ان لبعض الدول العربية ارضا تحتلها اسرا ئيل . وبكل منطق بما فيه المنطق الوطني الاقليمي لا بد لهذه الدول من ان تسترد ارضها بالوسائل المناسبة لها .

الوسائل المناسبة لها اي التي تدخل اولا في نطاق حقوقها المشروعة كدولة مستقلة وتدخل . ثانيا في نطاق امكانياتها المتاحة. لا اعتراض على هذا ابدا. والتخلي عن استرداد : الارض ، او تركها ، او التنازل عنها يمثل خيانة بكل معنى الخيانة الاقليمية. وفي سبيل هذا تستطيع الدول العربية - اذا شاءت - ان تلزم نفسها بحدودها هي، وان تنزع تسليح جزء من أرضها، وان تتعهد وتقبل بكل الضمانات التى تريدها او تفرض عليها حتى لاتتجاوز حدودها عسكريا، ولا تحاصر احدا اقتصاديا ، وحتى ان تفتح مياهها او أجواءها أو حدودها لمن تشاء... كل هذا ممكن من حيث هو يتفق مع الموقف الاستقلالي دوليا الاقليمى عربيا... لان كل هذا يكون استعمالا لسيادة الدولة على ارضها وشعبها وتقع مسئولية قبوله او رفضه على شعبها. ولكن غير الممكن هو ان تمد أية دولة ارادتها الى ما يتجاوز سيادتها فتقول ان تلك الارض التي هي خارج حدودي ليست ملكا لهذا الشعب بل ملك للآخرين مع ان كليها لا ينتميان اليها - كدولة - سياسيا. غير الممكن بمنطق الاستقلال الدولي

والاقليمية العربية ان تعترف أية دولة، صرا حة أو ضمنا، بالوجود الاسرا ئيلي على أرض فلسطين . بما يعنيه هذا ويتضمنه من ان ارض فلسطين ليست من حق الشعب العربي .

من غير الممكن بمنطق الاستقلال الدولي والاقليمية العربية ان تتدخل دولة في شـــئون فلســـطين فتتجه ارادتها الى ارض خارج نطاق سيادتها فتقسمها بين اصحابها ومغتصبيها.. من غير الممكن ان تسترد اية دولة عربية ارضها، او تحصل اية دولة غير عربية علـــى مـــا يحقـــق مصـــالحها الاقتصادية او السياسية او المالية او الثقافية او حتى الدعائية مقايضة على ارض خـــارج نطـــاق سيادتها هي ارض فلسطين . لمن الارض التي تسمى فلسطين؟ أللشـــعب العربـــي أم للصـــهاينة؟.. الاجابة الوحيدة الممكنة بالنسبة اليكم ايها السادة الاصدقاء وايها الاخوة الحـــاكمون فـــي الـــدول العربية، طبقا لمنطلق الاستقلال الذي تتمسكون به ، هو الا تجيبوا اصلا، اذا كنتم اصلا لا تريدون، أو لا تستطيعون في الظروف القائمة، ان تقولوا انها للشعب العربي .

ولكم في هذا حجة على من يطلبه منكم هي انكم - بحجة استقلالكم - لا تستطيعون، ولـــيس مـــن حقكم ، التدخل في شئون فلسطين. ونشهد ان الاعتراف الصريح او الضـــمني باســـرائيل محـــرم عليكم، وفيما عدا هذا افعلوا ما شئتم لاسترداد ارضكم او تحقيق مصالحكم ولكل حكومة شعب هـــو المسئول النهائي عن القرارات التي تتخذها حكومته. ثم يبقى السؤال موجهـــا لاصـــحابه فقـــط ، ويتحمل الشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير التي تمثله مسئولية الاجابة عليه . وكل الاطراف التي يحرضونها الآن على ان تجيب اعترافا ضمنيا بصحة ما نقول ولكن عليها ان تتذكر . ان " الحياد" مستحيل بالنسبة اليها كما هو مستحيل بالنسبة الى غيرها، كل ما في الامر انهـــا لا تســـتطيع أن تمتنع عن الاجابة وليس لها في الجواب خيار فاما ثورة حتى النصر وامـــا الخيانـــة... كـــل هـــذا والخطاب إلى كل الاطراف المعنية بحل مشكلة فلسطين، وفي نطاق افكارهم ومنطقهم ومـــواقفهم، اما القوى القومية التقدمية - الممثلة الوحيدة لجماهير الامة العربية - فان لها من المشكلة افكـــارا ومنطقا ومواقف اخرى ليس هنا موضع الحديث عنها.

مقياس الخطر من الوجود الاجنبي في الوطن العربي

يتساءلون. أين نحن من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية، ويقولون ان الامر كان واضحا حين كنا منحازين الى الشرق . حين اقتصرنا على اسلحته وخبرائه. حين فوضناه في أن يتحدث باسمنا . حين عرضنا عليه الدفاع عن وطننا. حين بذلنا فوق ما نطيق مالا وبشرا في العراك مع الولايات المتحدة الامريكية واصدقائها. حين اخترنا الاشتراكية. ولقد كان الامر واضحا لان حدود الانتماء - كما يقولون - كانت واضحة. فلقد كان العالم منقسما انقساما حادا الى قوتين متصارعتين، الكتلة الشرقية بقيادة الاتحاد السوفيتي والكتلة الغربية بقيادة الولايات المتحدة الامريكية. في تلك الظروف كان من الممكن أن نجد للانحياز مبررا. ولقد حاولنا وحاول غيرنا ان نبني كتلة عدم الانحياز من دول العالم الثالث ، ولكنا - وا قعيا - كنا منحازين . المهم ان الظروف قد تغيرت. وان المتغيرات الدو لية قد اصابت علاقات كل الدول بالتغيير. وحل الوفاق محل الصراع بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية. انهم يتعايشون معا ويتفقون معا ويعقدون الصفقات طويلة الامد. وان هذه لفرصة تاريخية لنعود الى استقلالنا ونتعامل مع كل الدول بدون تمييز ولا نزج بانفسنا في معتركات السياسة الدولية. وان اخشى ما نخشاه من خطر على قضيتنا أن نقع فريسة الاستقطاب مرة أخرى ، واخشى ما نخشاه من خطر على حريتنا أن نفقد المقدرة على اتخاذ قراراتنا طبقا لما يتفق مع مصالحنا.. الخ .

يثير هذا الذي يقال ثلاثة مواقف متميزة في الوطن العربي

الموقف الاول ، يعيد التذكير بتاريخ علاقتنا بالاتحاد السوفيتي . لم يكن الاتحاد السوفيتي هو الذي تقدم فدس أنفه في شؤوننا الداخلية . كانت البداية منا. نحن الذين تقدمنا اليه ننشىء معه علاقات اقتصادية ومالية وثقافية وعسكرية فرحب وقبل. ولم نتقدم اليه مختارين . تقدمنا اليه بعد أن استنفذنا كل الوسائل في محاولات استغرقت سنين طويلة أردنا بها أن ننمي علاقاتنا الاقتصادية والمالية والثقافية والعسكرية مع المعسكر الغربي والولايات المتحدة الامريكية بالذات.

وكانت للولايات المتحدة الامريكية شروط لا تنسى لانها شروط تمس ا ستقلالنا وحريتنا" ولما رفضناها ضرب علينا الحصار الاقتصادي ، وجمدت أرصدتنا المالية في الولايات المتحدة الامريكية، وتوقفت الاعانات، وسحب عرض بناء السد العالي، وغزت اسرائيل أرضنا تحت مظلة حلف الاطلنطي. كان المطلوب منا لكي نحتفظ وننمي علاقاتنا مع الولايات المتحدة الامريكية أن نكف

أنفسنا عن الاهتمام أو التدخل في شؤون العالم العربي ، أن نصطلح ونعترف باسرائيل، لأن نقبل رقابة مالية على خزانتنا، الا نقيم مشروعا اقتصاديا الا بعد الاذن من البنك الدولي . باختصار كانت تبعيتنا الى الولايات المتحدة الامريكية هي ثمن أية علاقة اقتصادية أو مالية أو ثقافية أوعسكرية. والمرحوم دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة . هو الذي قال لنا : اما معنا واما ضدنا لان موقف عدم الانحياز موقف غير اخلاقي ...

ولقد لجأنا الى الاتحاد السوفيتي فتعامل معنا في الحدود التي ارتضيناها وقبل شروطا لا تتفق حتى مع مبادئه العقائدية. صفقة الاسلحة تمت سنة 1955 بينما كان كل الشيوعيين في السجون . وبينما كان خبراء الروس ينفذون مشروع السد العالي ، ويخططون لمجمع الحديد والصلب، ويوردون الاسلحة ، كان الشيوعيون أيضا في المعتقلات في الواحات، وعندما هزمنا في عام 1967 قدم لنا الاتحاد السوفيتي تعويضا عن اسلحتنا مكننا من استئناف القتال في حرب الاستنزاف. وعندما بدأت غارات العمق ذهبنا، نحن الذين ذهبنا، لطلب الاسلحة المتطورة، ونطلب الخبراء، ونطلب، نحن الذين طلبنا أن يتولى طيارون من السوفيت حماية اجوائنا الداخلية الى أن يتم تدريب طيارينا. وعندما قلنا تعالوا نتفق على انهاء مهمة الخبراء قال السوفيت ليس هذا من شأننا لنتفق عليه، انه من شأنكم انتم فان اردتم فانهوا وجودهم في بلدكم . فلما طلبنا مغادرتهم في موعد، حددناه نحن، غادروا هم قبل الموعد الذي حددناه . فلماذا نخشى التعامل مع الاتحاد السوفيتي وهذه خبرتنا معهم.. الموقف الثاني يقول ان هذا ليس الا جانبا واحدا من المشكلة. جانبها الثاني هو اننا عندما نقتصر في تعاملنا الاقتصادي أو المالي أو الثقافي أو العسكري على الاتحاد السوفيتي فاننا نكون قد اصبحنا تابعين له سواء اردنا او لم نرد .

ان الاتحاد السوفيتي لم يعطنا كل ما أعطانا حبا فينا أو استجابة لمبادئه ونظرياته. ولو كان يتبع في سياسته الخارجية مبادئه النظرية ما تخلى عن الماركسيين . ولو كان يتبع في تعاونه الدولي مبادئه لما عرض اقتصاد الصين الشعبية وهي دولة ماركسية للخراب عندما سحب خبراءه فجأة في وقت كانت الصين في أشد الحاجة اليهم . انما هو يبحث منذ قرون عن سبيل الى المياه الدافئة ، ولقد فتحنا له مياهنا فاصبح له وجود عسكري قوي في المتوسط ، وفي محيطات الجنوب ونقل بذلك صراعه مع الولايات المتحدة الامريكية الى ارضنا.

وفي هذا الصراع لا يمكن الحياد. فهو يسعى باساليبه الخاصة لاحتوائنا وهو يستعمل في سبيل هذا امضى اسلحته وهو السلاح الفكري . ما بين عام 1964 وعام 1967 لم تمض الا ثلاث سنوات قضاها الماركسيون خارج السجون فبلشفوا العقول و سمموا افكار الجيل الجديد من الشباب، واشاعوا الفساد والالحاد.. وفي الاوقات العصيبة لم يتردد الاتحاد السوفيتي في الضغط علينا بما يملك تحت يديه من ادوات اقتصادية ومالية وعسكرية. حبس عنا قطع الغيار. وهو يرفض جدولة

الديون . وهو يرفض ان يعوضنا خسائرنا في الحرب كما فعل مع سورية وكما تفعل الولايات المتحدة الامريكية مع اسرائيل . ثم بماذا يفيدنا الاتحاد السوفييتي ؟ ان ازمتنا اقتصادية. ولقد أصبحنا افقر الدول بعد أن كنا اغناها. ما نريد الان هو ان نوقف الاستنزاف الدائم لمواردنا الاقتصادية والبشرية بالكف عن الحرب. على اسرائيل اذن أن تترك أرضنا بدون قتال ولا يستطيع أن يحملها أحد على هذا الا الولايات المتحدة الامريكية. ثم ان الولايات المتحدة الامريكية هي وحدها التي تستطيع ان تقيلنا من عثرتنا الاقتصادية لانها اقوى قوة اقتصادية في الارض . ألم يلجأ اليها حتى السوفيت ليحلوا ازماتهم الاقتصادية المستعصية. لقد ارهقنا الفقر والحرمان سنين طويلة ولا نريد الا وضع حد لهذا الفقر والحرمان، فلنفتح أبوابنا للولايات المتحدة الامريكية. لن يأتي الينا الاسطول الامريكي فانه لا يفتقد القواعد.

ولن يأتي الينا الجيش الامريكي فقد انسحب حتى من جنوب شرقي اسيا. انما ستأتي الينا الاموال الغزيرة ، والتكنولوجيا المتقدمة ، والمشروعات الا ستثمار المدروسة. فتتحول بلدنا الى جنة كما تستحق بدون أن نفقد حريتنا . الموقف الثالث يقول : اننا، فوق كل شيء وقبل كل شيء، يجب أن نحافظ على استقلالنا فلا نقع في شباك التبعية لا للاتحاد السوفيتي ولا للولايات المتحدة الامريكية. وبناء عليه يجب أن نتعامل معهما معا، لا نعادي أيهما ولا ننحاز الى أيهما وبالتالي نفلت من كليهما ونستفيد من علاقاتنا بالجميع. على هذا الوجه يجب أن يكون التزامنا الاسترا تيجي ، أما المواقف التكتيكية فتتنوع وتتغير تبعأ للظروف المتنوعة المتغيرة . ولكن المقطوع به أننا لن نسمح في أي حال بوجود سوفيتي أو وجود أمريكي في أرضنا العربية.. فلا قواعد عسكرية. ولا احتكار للسلاح . ولا تعامل منفرد إقتصادياً، ولا رأسمالية، ولا شيوعية، بل انفتاح على كل الدول وكل المذاهب وكل النظم . ومعارك الكلمات وما تخفيه، ما تزال مستمرة .

ونحن نريد بهذا الحديث أن نقيم حدا بين المواقف. اذ لن يضيرأمتنا أبدا أن تفرز القوى من خلال مواقف محدودة بحيث يعرف كل واحد الى أين ينتمي . ان هذا الفرز مقدمة صحيحة وصحية للحل الصحيح . انما تضار أمتنا حقا، اعني جماهير أمتنا العربية ، وعندما تختلط في اذهاننا المواقف فلا تعرف كيف تختار موقفها هي . ولاختلاط المواقف سبب غير خفي فان جميع المتعاركين يدخلون الى موا قفهم المتناقضة مدخلا واحدا : الوطنية. الحرية. الاستقلال عدم التبعية... الى آخره . وهو مدخل الجماهير أيضا. فلا أحد يستطيع أن يقنع أحدا في الوطن العربي بخيانتة وطنه أو بيع حريته أو التنازل عن استقلاله. ومع ذلك فان المواقف التي اختلطت في مدخل واحد ، مدخل الوطنية، مواقف متناقضة فلا بد لها من أن تفرز حتى تعرف جماهير أمتنا أي موقف تختار لنفسها . ليس غاية هذا الحديث اذن ، تحقيق ادعاءات الاطراف المعنية او محاكمة مواقفها، بل غايته أن

يضع بين أيدي الجماهير العربية مقياسا للخطر، مفترضا ان الموقع الاستراتيجي لوطننا العربي وما فيه من ثروات يرشحه لمطامع كل الذين يحتاجون إلى" وجود" سواء كان وجودا عسكريا أو اقتصادياً ، ولن نعقد مقارنة بين كل الدول والقوى لنقول من منها الذي يحتاج إلى" الوجود" في الوطن العربي . انما نقصر الحديث على بيان كيف تتواجد القوى والدول خارج حدودها . والمقارنة للايضاح، بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية. ان الولايات المتحدة الامريكية هي التي هددت صراحة بغزو الوطن العربي وهي التي تتواجد عسكرياً في اسرائيل وهي التي تملك القواعد في بعض الاقطار العربية . يقول أصحاب الموقف الثاني أن الولايات المتحدة هددت ولكنها لم تنفذ مع انها قادرة على التنفيذ .

وهي ليست قوة عسكرية موجودة في اسرائيل بل هي حليفة تبيع لاسرائيل السلاح كما تبيع للاردن وللمغرب ، وهذا يجري به العرف الدولي . أما قواعدها في بعض الاقطار العربية فقد أقيمت على أرض مؤجرة من تلك الاقطار وما تزال لها قاعدة في كوبا لم تستخدمها في اسقاط كاسترو رغم محاولاتها اسقاطه بطرق أخرى . ولقد استطاعت ليبيا ان تنهي هذا الوجود بمجرد طلب انهائه وأخلت أمريكا قاعدتها هناك. ليكن. منعا للجدال. لنستبعد اذن المقياس العسكري ولنقل أن أياً من الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية لن يجسد وجوده خارج حدوده عنوة بالقوة المسلحة والاحتلال . انه الاستعمار "القديم" الذي انقضى عصره .

كيف يتجسد وجود الدولة خارج حدودها إذن ؟ كل بالاسلوب الذي يتفق مع نظامه الداخلي . الاتحاد السوفيتي دولة اشتراكية خالية تماما من المؤسسات الفردية . الدولة هي التي تنتج السلاح وهي التي تبيعه. الدولة هي التي تملك" ادوات الانتاج وتتعامل - خارجيا - في المنتجات الصناعية والزراعية وغيرها. وكل الناس في الاتحاد السوفيتي عاملون في الدولة، ولا يستطيع أي واحد منها أن يؤجر قوة عمله الى غير دولته ولكنها تملك تشغيله في خارج الدولة تنفيذا للاتفاقات التي تعقدها الدولة مع الدول. والدولة هي التي تملك الصحف والاذاعة وتطبع الكتب وتنشرها وتوزعها داخل الاتحاد السوفيتي وخارجه. وهكذا يكون الوجود السوفيتي خارج حدوده وجودا ظاهرا ومحددا ومعروفا لانه يتم من خلال الدولة وفي نطاق علاقاتها بالدول الاخرى . الوجود الاقتصادي يتم في شكل مكاتب متخصصة ترفع العلم السوفيتي علناً . في شكل عقود يبرمها مندوبون مفوضون من الاتحاد السوفيتي رسمياً. في شكل مصانع وأدوات صناعية وأسلحة وذخائر تسلّم من الاتحاد السوفيتي الى الدولة المعنية طبقاً لاتفاقات معروفة. في شكل خبراء معروفة أسماؤهم وأسماء أسرهم وأعدادهم ومحال إقامتهم وأرقام هوياتهم لدى سلطات الدولة التي يوجدون فيها .

والوجود الثقافي في شكل مكاتب ثقافية ومكتبات وصحف وكتب تحمل كل منها شعار واسم الاتحاد السوفيتي . وفي شكل وفود زائرة معروفة العدد والاسماء ومدد الاقامة والغرض من زيارتها

ووفود مدعوة بالاسم او بالصفة لمدد معلومة تقدم دعوتها الى الدول التابعة لها . لا شيء يجري في الخفاء، ولا شيء يمكن أن يضلل أحدا في" الوجود" السوفييتي عندما يريد الاتحاد السوفيتى أن يكون له وجود خارج حدوده.. ان هذا الوجود العلني، والذي لا يمكن الا ان يكون علنياً هو الذي سمح ويسمح بحملات التشهير بالوجود السوفيتي. ففي كل دولة يستطيع رجل الشارع العادي ان يعرف ما اذا كان للاتحاد السوفييتي وجود في دولة ام لا.

وما شكل هذا الوجود. وما حجمه وبالتالي يستطيع ان يقدر ما اذا كان هذا الوجود يمثل خطرا على استقلاله او لا يمثل.. فالمشهرون بالوجود السوفيتي لا يحتاجون الى معلومات. كلها متاحة وغير منكورة فيبقى لهم ان يفسروا ويأولوا ويستنتجوا ما يريدون من وجود لا ينكره احد. على أي حال ، فان أي" وطني" يحرص على استقلال بلاده لن يخطىء ابدا في معرفة بدء وشكل ومضمون وحجم الوجود السوفيتي في بلاده . وسيكون عليه هو ان يقدر مدى اتفاق او عدم اتفاق هذا الوجود مع استقلاله الوطني، وان يحد منه او ينهيه ولن يكلفه هذا شيئا سوى مراجعة او تعديل او انهاء العقود والاتفاقات التي ابرمها مع دولة الاتحاد السوفييتي .

نأتي الى الطرف الآخر. الولايات المتحدة الامريكية دولة رأسمالية اقتصاديا ليبرالية سياسيا. الدولة هنا لا تتدخل بشكل عام الا في شكل القوة المسلحة التي استبعدناه . لان الدولة في الولايات المتحدة الامريكية ذات وظيفة محددة : حماية مصالح رعاياها واشخاصهم فقط لا غير . اما العلاقات الاقتصادية او المالية او الثقافية بالدول الاخرى فيقوم بها الافراد والمؤسسات الخاصة . حتى الاسلحة تنتجها وتبيعها مؤسسات خاصة تلك المؤسسات الخاصة قد تقيم علاقاتها مع دولة او مع مؤسسات خاصة ا يضا في الدول . وغاية كل هذا النشاط الذي يقوم به الافراد والمؤسسات الخاصة من الامريكيين خارج الولايات المتحدة الامريكية هو الحصول على الارباح . اكبر قدر من الارباح ، وهكذا يتبع الوجود الامريكي مصادر المواد الخام والعمالة الرخيصة والعرض الاستهلاكي أينما كان متاحا بشروط افضل.. ولا تحتاج دولة الولايات المتحدة الى الظهور كطرف في علاقات رعاياها بالدول او المؤسسات او الافراد خارج حدودها. كل ما تحتاجه هو اكبر عدد من العيون والرقباء والعملاء الذين ينشطون خفية للتحقق من أن" الظروف" الداخلية في أية دولة لا تهدد مصالح رعاياها اما بتقييد نشاطهم أو بمحاولة الحد من الارباح التي يغرفونها فتظهر حينئذ في شكل قوة عسكرية. وقلة من هؤلاء من يلحقون بسفاراتها كموظفين . الكثرة يتواجدون ايضا تحت شعار النشاط الاقتصادي أو المالي أو الثقافي . وليس مطلوبا من أي وطني حريص على استقلال بلاده ان يكشف حقيقة كل هؤلاء الامريكيين الذين يفدون الى بلاده، يحملون وعود الرخاء ودعوات السلام . هذا فوق طاقة اي وطنى .

كيف يمكن اذن ان يعرف أي وطني حريص على استقلال بلاده بدء وشكل ومضمون وحجم الوجود الامريكى في بلاده ؟ بمراقبه ودراسة تتبع النشاط الاقتصادي والمالي والثقافي في بلاده ذاتها

عندما يبدأ دخول رؤوس الأموال الخاصة في بلده يكون قد بدأ الوجود الأمريكي سواء جاءت رؤوس الأموال تلك من الولايات المتحدة أو من المانيا الغربية أو من اليابان أو من أي طرف من أطراف الأرض لأن الولايات المتحدة الأمريكية هي" امبراطورة" الرأسمالية العالمية كل ثغرة تفتح لتتسرب منها مضاربات السوق الرأسمالي إلى الداخل يدخل معها السوق الأمريكي في شكل مضاربين على احتياجات الشعب في السوق الحرة .

كل صفقة دولية تعقدها مؤسسة خاصة "وطنية" هي اسلوب خاص للوجود الأمريكي في الوطن . كل فرع بنك أجنبي هو تجسيد للوجود الأمريكي . كل سلعة استهلاكية لا يحتاج إليها الشعب هي جزء من الوجود الأمريكي . كل مشروع امريكي اقتصادي أو مالي أو ثقافي ، هو وجود أمريكي .. كل دعوة ليبرالية هي دعوة إلى أمريكا لتتواجد . كل نظام رأسمالي هو في التحليل الأخير وجود أمريكي في شكل نظام . وفوق طاقة الجماهير العربية العادية أن تراقب وتتبع هذا الوجود منذ بدايته إلى أن يسلبها استقلالها الوطني .

فماذا تفعل لمنع مخاطر الوجود الأمريكي في بلادها ؟ هل تقاطع أمريكا ؟

لا .. ألا تتعامل مع أمريكا ورعاياها من المؤسسات والأفراد إلا عن طريق دولتها . أن تكون الدولة هي المتعاملة المتعاقدة المتاجرة المبادلة ، مالياً واقتصادياً وثقافياً ، مع أمريكا وكل النظم الرأسمالية . أن تكون الدولة هي صاحبة الصلاحية وحدها ، فيما يدخل أو لا يدخل حدودها من أموال أو بضائع أو ثقافة ، وتكون هي الطرف الوحيد في كل مشروع طرفه الآخر مؤسسة رأسمالية . ان الانفتاح على المؤسسات الأمريكية هو استدعاء للوجود الأجنبي في أرض الوطن .

حرية الارادة الوطنية بين الشكل والمضمون من مشكلات السياسة التي ظهرت منذ بداية الخمسينات من هذا القرن مشكلة مدى تحقق حرية الارادة الوطنية في القرارات التي تصدرها السلطة في اية دولة. فمن قبل، وعلى وجه خاص، قبل الحرب العالمية الاخيرة لم يكن اسناد القرارات التي تصدرها السلطة في اية دولة الى الارادة الوطنية، أو عدم اسنادها ، يثير أي لبس . كان العالم منقسما الى دول مستعمرة ودول خاضعة للاستعمار . وكا نت الدول المستعمرة تمارس سيطرتها على الدول الخاضعة ممارسة ظاهرة وتنفذ ارادتها تحت حماية القوات العسكرية المرابطة في ارض الدول الخاضعة. كان ذلك عصر الاستعمار القديم، اسلوبه المكشوف.

ولم يكن احد يخطىء في معرفة صاحب الارادة في صدور او نفاذ اي قرار . فمن حيث الشكل كان صدور القرار يبدأ بزيارة من ممثل الدولة المستعمرة الى الحاكم المحلي لتبليغه مضمون القرا ر الذي يريد ان يصدر . وقد يطلبه كتابة. وقد يأخذ شكل البلاغ العلني او حتى الانذار المصحوب بتهديد باستعمال القوة كما حدث في مصر في فبراير 01942 أما من حيث المضمون فقد كانت القرارات كلها ذات مضامين تخدم مصالح المستعمرين بالدرجة الاولى او بالدرجة الوحيدة . ثم جاءت الحرب العالمية الثانية وانتهت تاركة اثرين خطيرين :

اولهما: ان الدول الاستعمارية التقليدية قد انهكتها الحرب ماليا واقتصاديا وبشريا واصبحت في اشد الحاجة الى" توفير" نفقات الاحتلال المباشر ومصروفات انشاء القواعد العسكرية أو المحافظة عليها فكان لا بد من ان تنهى الوجود المادي الظاهر للاستعمار في الدول الخاضعة له.

ثانيهما: خروج الولايات المتحدة الامريكية من الحرب أقوى عسكريا وماليا واقتصاديا من وقت دخولها وتوليها قيادة المعسكر الاستعماري بدلا من القوى التقليدية المنهكة. وادى هذان الاثران الى تغيير في شكل الاستعمار الرأسمالي . فهو موجود ولكنه في اشكال خفية . وتتولى الولايات المتحدة الامريكية الحفاظ عليه ولكن بأساليب غير مباشرة .

هذا التغيير ادى بدوره الى تغيير في الشكل السياسي الذي كانت تعيش فيه المستعمرات. فقد كسبت تلك المستعمرات، كثير منها أو اغلبها، التحرر من التبعية الظاهرة فكسبت الاستقلال الظاهر - اعني جلت عن أرضها الجيوش المحتلة، وتشكلت فيها حكومات" وطنية" واختارت اعلامها، وا نشأت علاقات دبلوماسية مع الدول الاخرى، وحصلت على اعتراف الدول الاخرى بذلك الاستقلال، وحظيت بمقاعدها في هيئة الامم المتحدة . أصبح الاستقلال الوطني في كل شكلياته الدولية والدستورية حقيقة معترفا بها. وبه انتهى ايضا عهد املاء الارادة على السلطات الوطنية، واصبحت كل القرارات التي تصدرها السلطة في اية دولة" مستقله" تستند - من حيث الشكل - الى الارادة الوطنية. بقيت مشكلة المضمون. اي مدى اتفاق مضمون تلك القرارات مع المصالح الوطنية. وفي هذا انقسمت الدول المتحررة حديثا الى قسمين رئيسيين وان كانا متداخلين . فمجموعة كبيرة من الدول التي" استقلت" شكلا بقيت خاضعة" موضوعيا" للاستعمار في شكله الجديد. والشكل الجديد هو التبعية الاقتصادية والمالية والثقافية. فمع بقاء المصالح الاستعمارية بالرغم من الاستقلال الشكلي اصبحت الارادة الوطنية محكومة في مضمونها، بما يتفق مع الحفاظ وتنمية تلك المصالح، وانقلبت السلطة الوطنية الى" حارس وطني" للاستعمار بدلا من الجيوش التي جلت عن أرض الوطن .

وكان هذا اقصى ما يتفق مع ارادة المستعمرين، حيث تتحمل "الدول المستقلة" تكاليف واعباء الحفاظ وتنمية مصالحهم فتجعل الاستعمار اقل تكلفة وبالتالي تزيد من معدلات الربح . مجموعة أخرى من الدول التي" استقلت" شكلا ارادت ان تستقل مضمونا. ان تتحرر اقتصاديا وماليا وثقافيا من الدول الاستعمارية. والواقع انها لم تكن تطمح الى مقاطعة تلك الدول والدخول معها في صدام انتقامي يعوض مذلة السنين الطويلة. بل كان همها الاول ان تحول الاستقلال الوطني الذي تم شكلا الى استقلال حقيقي . استقلال اقتصادي ومالي وثقافي .

وكانت على استعداد لان تلتمس أسباب تقدمها الاقتصادي والاجتماعي في أي مكان من العالم المتقدم بما فيه الدول الرأسمالية الاستعمارية. اي ان اقصى ما كانت تطمح اليه السلطة الوطنية في تلك الدول هو ان تتعامل مع كل القوى ولكن بدون" تبعية" مع اعترافها بان العزلة او الانعزال عن

العالم ودوله ومصالحه - في هذا العصر - غير ممكن وغير مفيـد، وبالتـالي اسـتعدادها لتبـادل الخدمات والمعونات والمصالح عند نقاط التقائها مع اية دولة ولكن بدون" تبعية " . ولم يكن هـذا الاتجاه ليعجب المستعمرين . المستعمرون لا يتعاملون ولا يتبادلون ولكن يستولون ويأخـذون مـا يريدون عنوة او خفية. ولا يهم المستعمرين ان تعبر اي دولة باقصى ما يتيحه لها استقلالها مـن وسائل التعبير عن ارادتها الوطنية في اتخاذ قراراتها.

ولكن الذي يهمها ولا يمكن ان تتساهل فيه هو ان تكون مضامين تلك القـرارات غيـر مناقضـة لمصالحها اذا لم تكن مطابقة لها. وهكذا بدأ الصدام بين القيادات الوطنية التـي تريـد ان تحـتفظ بحرية ارادتها الوطنية شكلا ومضمونا وبين القوى الاستعمارية وعلى رأسها الولايـات المتحـدة الامريكية التي قد تسمح بالشكل الوطني للارادة ولكنها لا تسمح بأن يكون مضمونها وطنياً . وبـدأ الصدام ودار جزؤه الاكبر على الارض العربية. فقد كانت مصر، تحت قيادة عبد الناصر، هي المحك الذي كشف طبيعة الاستعمار الجديد وا ساليبه المبتكرة، وا ستفادت دول كثيرة في العالم من ذلـك الدور القيادي الرائد الذي وضعت به مصر، تحت قيادة عبد الناصر، قوى الاستعمار الجديد وعلـى رأسه الولايات المتحدة الامريكية موضع الاختبار السلمي والعنيف معا، لتعرف الـدول المتحـررة حديثا مدى حقيقة استقلالها ومدى استعداد القوى الاستعمارية لاحترام هذا الاستقلال . فمنذ 1952 بدأت القيادة الوطنية في مصر تتجه بقوة الى حل مشكلات التخلف الاقتصادي والاجتماعي بالتركيز على مشروعات التنمية الصناعية والزراعية وتوسيع فرص التعلـيم لتحضـير القـوى البشـرية المؤهلة لبناء الدولة الجديدة . وكان الاتجاه رأسمالياً لا شك فيه بالرغم من الاصـلاح الزراعـي" الذي استهدف القضاء على كبار الا قطاعيين وتحرير الفلاحين من القهر الاجتماعي بدون مسـاس بعلاقات الانتاج .

ولجأت الثورة في سنواتها الاولى الى الدول الرأسمالية عامة، والى الولايات المتحـدة الامريكيـة خاصة، تلتمس عندها رؤوس الاموال والخبرة ، واصدرت قوا نين "مثالية " لجذب رؤوس الاموال الاجنبية حتى متطلبات التسليح حفاظا - على الاستقلال حاولت الحصول عليها من الولايات المتحدة الامريكية اولا. لم تحصل على ما تريد وان كانت قد بقيت تحاول الى ان بدأت مشكلة بنـاء السـد العالي . وفي مشكلة بناء السد العالي تبينت القيادة الوطنية في مصر ما الـذي تريـده الولايـات المتحدة الامريكية.. تبينته لانه ابلغ اليها واضحا وصريحا في بنـود محـددة. الولايـات المتحـدة الامريكية تريد أن تحتفظ مصر المستقلة بحرية اتخاذ القرارات تأكيدا لاستقلالها الوطني علـى ان تكون مضامين تلك القرارات متفقة مع المصالح الامريكية لا مع مصالح الشعب العربي في مصر . انها لا تقدم المعونات بدون مقابل، ولا تعطي رؤوس الاموال في مقابل الفائدة، ولا تبيع في مقابـل الثمن، ولا تبادل فائضا بفائض كما يحدث بين الدول المستقلة. ولكنها تريد ان تختـار هـي نـوع المعونات والمشروعات التي تستثمر فيها رؤوس الاموال ونوع البضائع التي تبيعها، ونوع الفائض

الذي تقبله. ورفضت مصر تحت قيادة عبد الناصر ان تبيع استقلالها مقابل تنميتها اقتصاديا علـــى وجه تكون ملحقا وامتدادا للسوق الامريكي استثمارا وانتاجا وا ستهلاكا.. فسحبت امريكا عرضـــها بتمويل السد العالي، فأمم عبد الناصر القناة للحصول على موارد مالية لبناء الســد . هنـــا تـــدخل الاستعمار التقليدي بأساليبه العتيقة وحدث العدوان الثلاثي سنة 1956 وا شتركت فيـــه انجلتـــرا وفرنسا واسرائيل. وكان لا بد له من ان يفشل لان اساليب العصر قد تجاوزته. واشتركت الولايات المتحدة الامريكية في إفشاله .

افشاله كأسلوب غير مناسب لتحقيق الغاية منه وليس افشال غايته. فقد طالبت - مـــثلا - بجـــلاء القوات المعتدية ولكنها قررت - هي - تجميد أرصدة مصر المالية في الولايات المتحدة . ذلـــك لان الولايات المتحدة الامريكية كانت تدرك ان عصر املاء القرارات على الدول بقوة السلاح قد انقضى، وانه يجب ان يحتفظ لكل سلطة وطنية بحق اتخاذ قراراتها في دولتها، مع ضـــمان ان تـــأتي تلـــك القرارات التي تتخذها الدولة وهي في كامل سلطتها، ويتخذها الحكام وهم في كامل قواهم العقليـــة، متفقة في مضمونها مع ما يريده المستعمرون . كيف؟ بالسوبرنطيقا. علم التحكم غير" المباشـــر ". وهو علم نما ونضج في ممارسات الحرب العالمية الثانية ثم امتد بعدها ليطبق بنجاح في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتطبقه الولايات المتحدة الامريكيـــة بمهـــارة فـــي سياســـتها الدولية. يبدأ الاسلوب بالسؤال : ماذا تريد السلطة الوطنية في الدولة المعنية؟.. وفي الاجابة علـــى هذا السؤال تستعمل كل اساليب البحث العلمي والعقول الالكترونية.

ولا يقتصر البحث على الظروف الاقتصادية والا جتماعية والثقا فية والروحيـــة وعـــادات وتقاليـــد وتراث كل شعب فحسب، بل يمتد وبعناية بالغة لدراسة" اشخاص" القادة في أدق تفاصيلها . مـــن أول نوع القراءات والهوا يات والامزجة الى آخر السلامة العقلية والنفسية والجســـدية والمحـــيط الأسري ا يضا. كل هذا ليصلوا الى تحديد ماذا يمكن ان تريده السلطة الوطنيـــة. وعنـــدما تنتهـــي الاجابة يبدأ التخطيط البعيد المدى واصطناع وقائع في داخل الدولة المعنيـــة او خارجهـــا ، علـــى مستويات فردية ، ومستويات عامة.... ليصلوا في النهاية الى أن" تريد" السلطة الوطنية بكامل ا ستقلالها وحريتها في الاختيار ذات الذي يريده المستعمرون . وبينما تكون عجلـــة الدولـــة تحـــت قيادتها الوطنية منطلقة على الطريق الذي اختارته، تتفادى مخاطره، وتلف مع منحنياتـــه، وهـــي حريصة تماما على سلامة القيادة، مفتحة العينين حتى آخرهما فخورة بارادتها الحرة تجد نفســـها في النهاية في الموقع الذي كان يراد لها ان تصل اليه من قبل .

فمن بين كل الطرق عبد لها طريق بعينه. وعلى الطريق وضعت لها علامات"من أجـــل ســـلامتك هدئي السرعة..." أمامك منحنى خطير".." الاتجاه الى اليمين".." الطريق الجانبي مغلق".. الى آخره . وهي التي اختارت وهي التي سارت وهي التي احتاطت وهي التي وصلت.. ولكن الى حيث

يراد لها . ولقد بدأت استعمال هذا الاسلوب مع مصر ايضا عندما عجزت الولايات المتحدة الامريكية عن اسقاط عبد الناصر بالطرق المباشرة. ودرست ظروف مصر ودرست شخصية الرئيس الرا حل وبدأ التخطيط الذي اشتركت فيه قوى كثيرة وهي في كامل وعيها وبدون أن تدري وانتهــت بهــا جميعا الى كارثة 01967 التصالح بين عبد الناصر وقيادة النظام القائم في سورية بعــد صــراع طويل. ثم معاهدة دفاع مشترك مع ذات القيادة . ثم تصعيد الموقف بين سورية واسرا ئيــل . ثــم تهديد اسرا ئيل بغزو دمشق . ثم ا ستغاثة سورية. ثم - وهنا حصيلة دراسة شخصــية الــرئيس الراحل وشعوره الحميم تجاه سورية - امر الرئيس عبد الناصر بتحريك القوات الى سيناء. وكادت الخطة تفشل عندما قبل يوثانت أمين هيئة الامم طلب عبد الناصر ا نسحاب قوات الامن الدولية من القطاع الشمالي من الجبهة فقط . فطار بانش الامريكي ومساعد يوثانت في ذلك الوقت الى مواقــع قوات الامن الدولية ليقنع الامين العام الدولي بان يطلب من عبد الناصر اما التراجــع عــن طلــب سحب القوات او ان تنسحب من كل الجبهة. وكانوا يعرفون مقدما مــاذا ســيكون رد فعــل عبــد الناصر. فلما ان انسحبت قوات الامن الدولي من كل الجبهة.

اتموا اكمال الخطة باثارة الملاحة في خليج العقبة.. ثم، تحطيم القوات المسلحة العربية في ضــربة خاطفة. وكان ذلك هو المقصود قبل الاخير. فقد كانت نهاية حساباتهم سقوط عبــد الناصــر فــور الهزيمة. ولكن جماهير الامة العربية احبطت الخطة في جزئيتها الاخيرة. وفرضت الصمود وبــدأت مرحلة صراع جديدة . ونستطيع أن نضرب ، مما يدور في الوطن العربي حاليا، عشــرات الامثلــة الاخرى . قادة وساسة واحزاب وا فراد وصحف... كلها تتحرك وهي في كامــل وعيهــا وتتخــذ مواقفها بكامل ارادتها ولكنها لا تنفذ في الواقع الا ما يراد لها ولا تقف الا الموقف الذي اوصــلتها اليه قوى عاتية حريصة على الا تمس من قريب أو بعيد شعور الاعتزاز باستقلال الارادة الوطنية، الاستقلال الشكلي ، ما دامت تلك الارادة تحقق لها ما تريد. هل هي عمالة؟. ليس بالضــرورة . ان العملاء الذين ينشطون بناء على تعليمات صادرة اليهم من الولايات المتحدة الامريكية فــي مقابــل أجور معلومة كثيرون في الوطن العربي .

ولكن ليس كل من ينشط لتحقيق ما تريد الولايات المتحدة الامريكية عميلا لهــا. ا نــه - فقــط - ضحية عجز كفاءته عن ادراك اصول ومخاطر لعبة السياسة الدولية في عصر " السوبر نطيقــا ". وحتى العملاء الصريحون لم يعودوا يعملون بناء على عقود ثنائية الاطراف معقودة مع مخــابرات الولايات المتحدة الامريكية. يكفي بألف طريق وطريق غير مباشــرة ، ان يســتدرج الــى نشــاط اقتصادي أو مالي، كشريك أو سمسار أو وكيل لاحدى المؤسسات الرأسمالية في اوربا أو امريكــا وان ينجح ، أي أن يمكنوه من تحقيق مزيد من الارباح ليجد نفسه وقد" اقتنع" بــان" المصــلحة الوطنية" لا تتحقق الا بالاقتصاد الحر ثم بالتعامل مع العالم الغربي ثم مع اقوى دول العالم الغربي امريكا ، ثم - من اجل المصلحة الوطنية - لا بد من الحفاظ على مصالح امريكا.. فيصبح" عميلا"

موضوعيا بالرغم من انه لا يقبض أجر عمالة ولم يمل عليه أحد آراءه ولم يحدد له أحد موقفه تحديدا مباشرا.

كيف يمكن الافلات من هذه النتيجة الجهنمية؟

أولا : وقبل كل شيء بان ندرك بأن اساليب الاستعمار قد تغيرت وتطورت وتقدمت فلا ننخدع فنتصور انه ما دامت القوى الاجنبية لم" تطلب" منا أو" تشير" علينا باتخاذ قرار ما فان هذا القرار يكون قد صدر ونحن نمارس كامل حرية ارادتنا الوطنية. لأننا عندما ننخدع يكون غرورنا هو الثغرة" المدروسة" لتمر المضامن التي اخترناها بعد أن اختبرت لنا بعناية كبيرة.

ثانيا : ان نستغل الى اقصى درجة نقطة الضعف في اسلوب التحكم غير المباشر : فله هو أيضاً نقاط ضعف مثل كل اسلوب آخر. ونقطة ضعفه انه يدفع بنا الى مواقف استراتيجية غير معلنة من خلال ثغرات تكتيكية ، جزئية أو مرحلية . يضع أمامنا في كل جزئية أو في كل مرحلة اهدافا مغرية لنختارها ثم ينتقل بنا الى اهداف مغرية أخرى .. وهكذا في سلسلة من الجزئيات نجد انفسنا بعدها وقد أصبحنا أمام أمر واقع لا بد لنا من أن نقبله بعد أن قطعنا كل تلك المراحل اليه ونحن في كامل قوانا العقلية وبكامل ارادتنا. ان الاستغراق في التكتيك ، وفرحة تحقيق الانتصارات الشكلية أو الجزئية يرشحان احسن الناس نية ليكون ضحية سهلة للتحكم غير المباشر في حركته. وبالتالي فان وسيلة الافلات من هذا الشرك هو التركيز على الاهداف الاستراتيجية في كل مرحلة، وفي كل جزئية. واتخاذها مقياسا حاضرا في كل حين لقياس مدى سلامة أية خطوة. التركيز - مثلا - على هدف استرداد أرض فلسطين المحتلة منذ **1948** ، سيضرب كل خطط التحكم غير المباشر التي تحاول الولايات المتحدة الأمريكية أن تصل بنا من خلالها إلى الاعتراف بإسرائيل . ان الولايات المتحدة الامريكية لن تطلب من منظمة تحرير فلسطين مثلاً أن تعترف بإسرائيل ، انها حتى لا تعترف بمنظمة تحرير فلسطين ، ولكن .. من مذبحة ايلول عام **1970** إلى مذابح لبنان عام **1975**، جرت وتجري أحداث في أماكن كثيرة من الوطن العربي بقصد أن تختار منظمة تحرير فلسطين بكامل حرية ارادتها الوطنية أن ترسم على الخرائط الحدود الفاصلة بين دولتها" الفلسطينية" والدول المجاورة ومن بينها اسرائيل . فهل ننتبه ، أم نذهب إلى الهاوية بكامل إرادتنا الوطنية ؟

أرض الوطن بين الحرب والسلام

ليست الحرب مباراة رياضية بل هي صراع وحشي . ان الذين يسقطون ضحايا في الحروب، ونسميهم شهداء، ونشيد بهم وقد نقيم لهم النصب التذكارية ليسوا "اعداء " بل هم بشر متعددون . لا بد ان يكون كل منهم قد عانى - قبل أن يموت-

أفظع الآلام التي يمكن أن يعانيها البشر. ثم انهم بشر من أسر، يموتون ويخلفون لاسرهم مع العزاء النفسي الموقوت الثكل واليتم والحزن وانقلابا لا شك يصيب كل أسرة في اسلوب معيشتها وآمالها بعد ان تكون قد فقدت أحد، أو اكثر عناصرها البشرية. ثم ان هؤلاء البشر، الشهداء، ضحايا الحروب، هم بشر من مجتمع يفقدهم مجتمعهم ويفقد معهم كل ما تدمره أو تخربه أو تبدده الحروب من مصادر للثروات وموارد للتنمية وفرص للتعليم والثقافة وتقدم نحو حياة أفضل . باختصار ان الحرب ليست صراعا وحشيا فقط بل هي أداة تخريب بشري واقتصادي واجتماعي وثقافي.. من هنا تصدق الدعوة إلى السلام ، على أساس ان السلام ، والسلام وحده، هو الشرط الذي لا بد منه للتقدم البشري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، حيث يتفرغ في كل مجتمع لاداء وظيفتهم الانسانية الاصيلة، الصراع ضد ظروفهم المادية لتوظيف مواردهم المتاحة من اجل مزيد من اشباع حاجاتهم المادية والثقافية المتجددة أبدا . أعني تطوير مجتمعهم الى مجتمع الرخاء والحرية .الرخاء والحرية لكل فرد فيهم . وفي ظل الرخاء والحرية تتاح الظروف الموضوعية للابداع الانساني والتقدم الى ما لا نهاية... غير ان استمرار كل هذا يكون متوقفاً على أن تظل الموارد المادية المتاحة في كل مجتمع متاحة له بدون انتقاص . وليس من اللازم أن يكون أي مجتمع في كل زمان عارفا بكامل الموارد المادية المتاحة له، غير ان الانسان المبدع ، القادر، الذي لا يتوقف ولا يمكن ان يتوقف، عن التقدم الاجتماعي كاتجاه تاريخي نام أبدا بصرف النظرعن تعرجاته المرحلية، كفيل ؛ في ظل السلام ، ان يحيط معرفة بكل ما يملك وأن يستثمره استثمارا مطرد التفوق في أدواته ووسائله الى أن يحول كل " ذرة تراب " الى لبنة في بناء الرخاء والحرية. وهذا هو ما فرض على البشرية من قبل ، ويفرض عليها اليوم ، وسيفرض عليها غدا، القيمة المتساوية لكل ذرة تراب من،" ارض الوطن " فلا تفرط في ، ولا تتنازل عن، شبر من أرض الوطن حتى لوكان الشبر مستنقعا من الماء العفن ، أو كان بقعة مجهولة في فيافي الصحارى التي لم تكتشف بعد ، ويسمون مثل هذا التفريط أو التنازل " خيانة ". وهي ليست " خيانة " لانها هدم أو تعويض لبناء اقتصادي أو اجتماعي أو ثقافي

قائم فعلا، وليس من الضروري أن تكون كذلك . انها خيانة ان لم تكن لحياة قائمة متوقفة عليها فلحياة قادمة ستقوم عليها. وبهذا تكتسب " الوطنية " أو " الخيانة " البعد التاريخي الذي يصل ما بين أقصى الماضي وبين أقصى المستقبل . وتصبح أرض الوطن وكل ذرة من ترابه ملكية تاريخية مشتركة بين الاجيال المتعاقبة، وتصبح الوطنية هي الحفاظ لا على ارض الوطن كما هي في زمن معين فحسب بل الحفاظ على بقاء ملكيتها التاريخية للاجيال القادمة، وتصبح الخيانة الوطنية أو الاعتداء على الوطن ليس مجرد حالة قائمة تهدد الوضع القائم، بل حالة قائمة تهدد الوضع القادم، ولهذا يموت الناس، أي يفقدون علاقتهم باوطانهم نهائيا، من أجل الاحتفاظ باستمرارية الوطن للاجيـــــــــــــــــــــــال القادمـــة.

اذن،

فان الدعوة الى السلام، والسلام الفعلي ، لا يمكن أن يأخذ أحدهما، أو كلاهما، شكلا واحدا في الممارسة ، ذا قيمة واحدة " وطنياً " بصرف النظر عن علاقة السلام بسلامة أرض الوطن. والدعوة الى السلام بصرف النظر عن علاقة السلام بسلامة ارض الوطن دعوة ان لم تكن مثالية منافقة فهى دعوة انهزامية. وممارسة السلام بصرف النظر عن علاقة السلام بسلامة ارض الوطن ان لم تكن استسلاما للهزيمة فهي خيانة وطنية. وبعكس هذا كله، وفي ظروف تاريخية محددة بان ارض الوطن مسلوبة، تصبح الدعوة الى الحرب التي هي دعوة الى القتل، هي الدعوة الوحيدة الصادقة للسلام . وتصبح الحرب التي هي ممارسة للقتل والتخريب هي الممارسة الوحيدة الصادقة " للسلام" . " " وعندما يبدأ العدوان لا بد أن يبدأ القتال دفعا له ودفاعا عن أرض الوطن . بكل مقياس ذاتي أو موضوعي، سياسي أو ا قتصادي أو اجتماعي، بكل مقياس وطني، اذا تعرضت ارض الوطن للاعتداء يسقط موضوعيا ، الحديث عن السلام في ظل العدوان ، أو الدعوة اليه سواء كانت دعوة الى الوطنيين أو المعتدين ، أو ممارسته ما دامت " أرض الوطن " لم تتحرر نهائيا، وكل شبر فيها، نقول يسقط " موضوعيا " لان العدوان كظرف موضوعي يجعل من الدعوة الى القتال وممارسته هي الدعوة الوحيدة والممارسة التي لا ممارسة غيرها، الصاد قة " موضوعيا " من أجل السلام.

ليس مفهوم السلام وحده هو الذي يتغير فيصبح قتلا وقتالا عندما تتعرض " ارض الوطن " للعدوان ، بل ان " ارض الوطن " ذاتها تصبح ذات مفهوم جديد . انها في ظرف الحرب ليست ذلك المكان الجغرافي المعبأ بالموارد المادية. الذي يباشر الناس فيه مقدراتهم الا بداعية لتحويل تلك الموارد الى منتجات مادية وثقافية ويحققون فيه الرخاء والحرية . لا. في الحرب تصبح أرض الوطن، مصدراً للتعبئة، ومكانا لحشد القوى وتدريبها، وقواعد ا نطلاق ، " وميدان مناورة وتكتيك وكر وفر ودرعا لتلقي الضربات . أعني تدخل " أرض الوطن " مع أصحابها أتون المعركة عنصرا مؤثرا ومتأثرآ وتكف عن أن تكون مجرد امتداد جغرافي معلوم الحدود. ذلك لأنه عندما يبدأ القتال من أجل تحرير أرض الوطن، تصبح غايته، لا مجرد استرداد مساحة من الارض، بل تدمير وتصفية مصادر وقوى العدوان نهائيـاً والى الأبد ليعود السلام، وفي ظل السلام فرص الرخاء والحرية."

فمثلا قد يقتضي " النصر " في معركة تحرير أرض الوطن التخلي عن جزء من أرض الوطن بل وحرقه وتدميره .وقد مارس المدافعون عن الوطن الروسي هذا الاسلوب الناجح في عام 1812 عندما انسحبوا أمام جيوش نابليون الى ان دخل موسكو فأحرقوا مدينتهم الغالية. وعندما انسحبوا أمام القوات النازية الى أن اقتربت من موسكو . كما مارسه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عندما أمر بالانسحاب عام 1956 حتى يحول دون تطويق قواته من الخلف بالقوات الانجليزية والفرنسية التي أنزلت في بورسعيد...

ومثلا قد يقتضي " النصر " في معركة تحرير أرض الوطن نقل القتال الى ما يتجاوز حدوده ومطاردة المعتدين- أو للوصول الى مراكز تعبئتهم وتدمير وتضييق قواهم وتأمين عدم امكان عودتهم إلى الاعتداء أو الاستمرار في المقاومة. وهذا ما فعلته قوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية عندما لم تكتف بتطهير الاراضي التي كان النازيون قد احتلوها ثم التوقف عند حدودهم الوطنية بحجة أن " ارض الوطن " قد استردت بل أقتحموا معقل العدوان " المانيا " وحطموا دولة النازي مرة واحدة وإلى الابد ثم جردوا المانيا من أمكانية العودة الى الاعتداء بأن قسموها الى دولتين....

ننتهي من هذا كله الى نتيجة هامة هي:

في حروب التحرير الوطني لا يعتبر كل تخل عن جزء من أرض الوطن هزيمة أو " خيانة " وكل استرداد لجزء من أرض الوطن انتصاراً أو " بطولة "، انما يتحدد الموقف من ارض الوطن تبعا وطبقا لمتطلبات تدمير وتصفية قوى العدوان الذي لا بد أن يتم مهما طال الصراع، ولا يتم النصر الا به، حينئذ، حين تصبح القوى المعتدية في حالة عجز كامل شامل دائم عن استئناف عدوانها، تكون أرض الوطن قد تحررت فعلا ويكون النصر قد تم فعلاً.. هذا يعني تماما أن أية دعوة للسلام أو ممارسته قبل أن يتم تحرير أرض الوطن بهذا المعنى ، هو أما قبول للهزيمة أو تخل عن جزء من السيادة الوطنية على أرض الوطن أو منح قوى العدوان فرصة زمانية لتعبىء قواها من جديد وتعود إلى الاعتداء.

كل هذا ينطبق على الصراع العربي ضد الاحتلال الصهيوني ويضبط المواقف الصحيحة عن مسألة الحرب والسلام.

أن الصهيونية قد اعتدت على الارض العربية وأحتلت فلسطين وتجاوزتها إلى مزيد من الارض العربية. والصهيونية منظمة عالمية يقع مركز قيادتها والمجالات الرئيسية لنشاطها . خارج الارض العربية.

ويتسع نشاطها ليتغلغل في كل انشطته على وجه الارض سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية او ثقافية. وهي التي جندت اليهود طواعية وارغاما، وعلمتهم، ودربتهم، ومولتهم، وسلحتهم ونقلتهم الى ا لا رض العربية ليحتلوها . وهي التي اقامت على الارض العربية رأس جسر أسمتها دولة اسرائيل. وهي التي ما تزال تجند وتعلم وتدرب وتمول وتسلح وتنقل اليهود طواعية او ارغاما لدعم التكوين

البشري الغريب الذي يجسد احتلالها للارض العربية . وهى التي تستعمل كل ما تملك من مقدرة سياسية وا قتصادية وثقافية " لابتزاز " دول العالم وارغامهم على تجنيد وتعليم وتدريب، وتمويل وتسليح ونقل اليهود من تلك الدول الى اسرائيل . وهى التي تستعمل كل ما تملك من مقدرة سياسية واقتصادية وثقافية لتفرض على كثير من الدول في العالم مواقف الدعم لاسرائيل أو حجب الدعم عن حركـــــــــــة التحـــــــــــرر العربـــــــــــي.

ان المنظمة الصهيونية " المعشعشة " في الدول الاوربية والامريكية ودول أخرى هي مكان حشد وتعبئة قوى العدوان على الارض العربية، وهم ا قدم من اسرائيل . واكبر من اسرائيل وأقوى من اســــــــرائيل . لان اســــــــرائيل ليســــــــت الا أداتهـــــــا.

ان اسرائيل الدولة ليست الا أداة الصدام المتقدمة بين الصهيونية والشعب ا لعربي . ولانها أداة الصدام والتجسيد الحي للاحتلال الصهيوني للارض العربية فان المقاومة العربية قد اتجهت إليها منذ البداية وما تزال تركز نضالها التحرري ضد هذا الكيان الذي يجسد الاعتداء ، غير ان ضيق الافق الذي لم ير حرب التحرير العربية الا في نطاق ذلك الجزء المحتل فعلا قد حال- دهرا -دون ان ترى القوى العربية جبهة الصراع على اتساعها ، ودون ان تمارس دفاعا ضد مراكز تجميع وحشد وتعبئة القوى المعادية، أي ضد الصهيونية حيث يكون للصهيونية نشاط . هذا في حين انه حتى لو استطاعت القوة الغربية ان تنتزع من الارض دولة اسرائيل فان هذا لن يكون نهاية الصراع. فكما قال احد قادة اسرائيل بعد حرب 1967 رداً على سؤال، ماالذي كان سيحدث لو ان العرب استطاعوا دخول اسرائيل واقامة دولة عربية ؟.. قال : كانت حكومة اسرا ئيل ستنتقل الى الخارج لتواصل القتــــــــال الـــــــى ان تعـــــــود... دولــــــــة اســـــــرائيل.

المهم . ان رؤيتنا الضيقة لطبيعة الصراع ومداه وقواه حبستنا عند عد اشبار أو اميال الارض المحتلة، ما اخذوه وما استرجعناه، فأخضعنا الحرب واستراتيجيتها وتكتيكها للعامل الجغرافي وحده واصبح صراعنا من اجل ان " نسترجع ارض الوطن " لا من اجل " تحرير ارض الوطن "0 الاول استرجاع مادي مؤقت تحت ظل التهديد بالغزو مجددا ، والثاني تصفية لاسباب العدوان، وتحرير ارض الوطن من مخاطر الاعتداء عليها مرة أخرى ... ان الرؤية العربية غير الواقعية، أي التي لا تحيط بواقع الصراع وحقيقة قواه ، هي التي مكنت قوى العدوان من ان تلتقط انفاسا في هدنة 1948 لتعود فتستولي على مزيد من الارض، هى التي مكنتها من ان تعد عدتها ثم تعود للاستيلاء على الارض منزوعة السلاح وتقيم لها ميناء على خليج العقبة، هي التي مكنتها بأن تأخذ الوقت الكافي للاعتداء على سيناء سنة 1956، هي التي مكنتها لتبدأ سنة 1957 للتعبئة والتدريب والاستعداد لتنفيذ خطة العدوان الذي وقع سنة 1967، هي التي مكنتها من ان تعيد تنظيمها داخليا وتعوض ما خسرته في حرب 1973 استعدا دا لاعتداء جديد، بل للبقاء على الارض التي احتلتها سنة 1967 .. ذلك لاننا في كل مرة كنا ننظر تحت أقدامنا لنعد ونقيس الا شبار والامتار التي تقهقرنا عنها او تقدمنا اليها.. متصورين خطأ أن " ارض الوطن "- في خلال الحرب- هي قيد على

حركـــــــة قتالنـــــــا وليســـــــت جـــــــزءا مـــــــن أدوات ذلـــــــك القتـــــــال...
وتكاد هذه الرؤية الضيقة أن تقود خطانا إلى المأزق في استكشاف فرص السلام . لا شك في انه ما دامت حالة الحرب قائمة فان النشاط القتالي أو التوقف عنه مؤقتا، التقدم أو التقهقر، صوت المدافع أو صوت الدبلوماسية لا يتناقض- اذا توافرت اسبابه الموضوعية- مع استمرار الصراع . واسبابه الموضوعية قد تكون أي شيء الا " اليأس " من النصر، أي " اليأس " من تحرير أرض الوطن، لان اليأس عنصر ذاتي وليس عنصرا موضوعيا. ومن اليأس انهاء حالة الحرب وممارسة السلام قبـــل ان تتحـــرر أرض الـــوطن، اي قبـــل ان تـــدمر وتصـــفى قـــوى العـــدوان..
ومع ذلك، فانها هي الدول الكبرى تعرض علينا السلام بدلا من الحرب. وتقدم تلك الدولة من مقدرتها على الحيلولة دون العدوان ضمانا تقول انه يغني عن القتال . ويدور الحديث ويذهب السيد كيسنجرويجيء " كالماكوك" ، وتبارك كثيرا من الدول مساعيه من أجل السلام، ومطلوب من العرب انهـــــــــاء حالـــــــــة الحـــــــــرب...
ولكنهم، يستغلون رؤيتنا الضيقة للصراع مداه وقواه ، ويقيسون فرص السلام بالاشبار والامتار أو الاميال من ارض الوطن . وأسترداد كل شبر من ارض الوطن امر لا بد منه، والتخلي عن اي شبر من أرض الوطن خيانة، ومع ذلك يبقى الفيصل بين الحرب والسلام هو تحرير أرض الوطن بتصفية قوى العدوان عليه وليس مجرد الزحف الى الحدود الوطنية. فما الذي تقدمه الدول الكبرى أو الصـــغرى ليغرينـــا بالســـلام بـــديلاً عـــن الحـــرب..؟
فـــي ارض فلســـطين يقـــدمون لنـــا بعـــض الارض ثمنـــا لـــبعض الارض. وهكذا تتحول معارك التحرر الوطني الى مساومة على " ارض الوطن ". ان ما يقدمونه في الضفة الغربية او غزة ارض عربية ان يتخلى عنها العدو وتعود إلى اصحابها، نحن. ولكن هذا لا يعني ان ما بقي من فلسطين محتلا ليس ارضا عربية من حقنا نحن . انهم يقدمون لنا " رشوة " من أموالنا ذاتها، نقبض شيئا لنفقد شيئا آخر. والشيء هنا هو ذلك الشيء الذي لا يملك أحد المساومة عليه أو التنـــازل عنـــه أو التفـــريط فيـــه. انـــه أرض الـــوطن.
وفي غير ارض فلسطين يقدمون لنا ارضنا بدون سيادة . أرضاً تكون " مقيدة " باسمنا في سجل الدولة، نرفع عليها رايتنا ولكن لا نقيم فيها ولا نستثمرها ولا نوظفها من اجل تقدمنا لانها ارض "منزوعة السلاح "، اي مجردة فمن يحميها. كأن ارض الوطن مجرد موضوع لملكية فارغة وليست مصدراً للحياة. ومن هم اولئك الذين سيذهبون للحياة في أرض مجردة عمن يحميهم من الاعتداء الممكـــــــن المتربـــــــع قريبـــــــا مـــــــنهم.
ثم تقدم لنا تلك الدول ارادتها ضمانا لتحرير ارض الوطن . وقد تكون ارادتها صادقة لاتفاق مصالحها " الحالية " مع انهاء القتال في منطقة النفط العربي ، ولكن اي ضمان تقدمه تلك الدول ضد مخاطر المستقبل . مستقبل تكون مصالحها متفقة فيه مع ردع العرب عن التقدم الى الوحدة مثلا، أو الاشتراكية مثلا. انه مستقبل يبدو من الان غير مضمون فان الولايات المتحدة الامريكية تهددنا علنا

بالغزو عندما تقرر هي ان اقتصادها وصل الى تلك المرحلة الغامضة مرحلة تسميها "الاختنـاق ." " "
"

اكثـــــــــــــــــر مـــــــــــــــن هـــــــــــــــذا وافـــــــــــــــدح..
ان تلك الدول التي تساومنا على السلام مع اسرا نيل . واسرا ئيل ليست ألا رأس جسر الصـهيونية، هذا في الوقت الذي تسمح بأن توجد على أرضنا وتنشط المنظمة الصهيونية التي هي مركز تجنيد

وتعبئة القوى المعتدية. الولايات المتحدة الامريكية ودول اوربا تسمح للقوى المعادية للأمـة العربيـة بـأن تقيم على أرضـها مؤسسـات وتدير نشـاطات غايتها تجنيد وتعبئـة وتدريب ونقل المعتدين إلـى الارض العربيـة والاتحـاد السـوفياتي يسـتجيب- فـي هـذه الخصوصـية وحـدها- للابتـزاز والضـغط الصهيونـي ويسمح لرعاياه " بحق " التخلي عن انتمائهم اليه، وهو مفهوم ليبرالي لا يتفق مع ابسط قواعد الماركسية وهو يعلم انهـم يتخلـون عن مـواطنتهم السوفيتية لتجنـدهم الصـهيونية وتعبئـهم وتـدربهم وتـنقلهم الــى الارض العربيــة، دعمــا للعـدوان علــى " ارض الــوطن" ..." "
ثم يد عوننا جميعا الى السلام . امريكا تقدم السلام خطوة خطوة. والاتحاد السوفياتي يريدنا ان نحضر صفقة السلام دفعة واحدة في جنيف. وهو من هنا ومن هنا سلام زائف لا علاقـة لـه بسـلامة " أرض الوطن " وطننا، حتى لـو كـان فيـه قدر موهوم مـن سلامة ارض اوطـانهم . ان الشـيء الوحيد الـذي يمكن ان يقنع الشعب العربي بان تلك الدول تريد السلام لنا، ولا تشتري سـلامة ارضـها بأرضـنا هو- علـى الاقـل- ان تمنـع وتصـفي قـوى العدوان علينـا التـي تقيم علـى أرضـها وتعبـىء رعاياهـا وتبتـز اموالهـا- ان ايـة دولـة تبيح للصـهيونية ان تنشـط فـي ارضـها متنازلـة عن سيادتها ذاتهـا، أو تخضـع للضـغط الصـهيوني متنازلـة عن حق رعويتهـا، انمـا هي فعلا، وموضـوعيا، تسـاهم فـي تعبئـة قـوى العدوان على الامة العربية وفي ظل هذا المسلك لا تكون كلمة السلام منها صادقة، بل تكون استدراجا لنـا باسم السـلام لننهـي حالـة الحـرب، لنكف عن معركـة تحرير ارضـنا، لنـدفع مـن "ارض الـوطن " الغالي ثمنا لسلامة الدول وفرصة لتعد الصـهيونية العدة من جديد لاقامـة دولتهـا علـى الارض العربيـة مـــــــــــن النيـــــــــــل الـــــــــــى الفـــــــــــرات..
وهذا لن يكون.

مواصلة الإشتباك مع العدو

ان كان موضوع الاشتباك مع العدو قد جاء في سياق تحديد المهمات المرحلية التي تواجه النضال العربي فليس مرجع هذا الى انه مهمة مرحلية. أبدا. مرجعه إلى ا نه العنصر المشترك" الثابت" في كل مراحل النضال العربي الى ان تتحرر فلسطين .

كان لازما منذ البدا ية وهو لازم الان، وسيبقى لازما حتى النهاية . حتى النصر انما نتحدث عنه كواحد من المهمات الملحة في المرحلة القادمة لنعيد التركيز عليه كعنصر أساسي وجوهري من عناصر النضال العربي . ثم لندفع عنه المخاطر التي تنطوي عليها دعوات السلام والحلول الدبلوماسية. فالاصل ان تكون دعوة السلام مشروطة باسترداد الحق المغتصب. ودعوة كهذه لا تتنافى مع مواصلة الإشتباك مع العدو ولكن عندما تتحول دعوة السلام الى بديل عن استرداد الحق المغتصب فهى تتضمن الكف عن الاشتباك مع العدو واتاحة الفرص للمساومة على الحق ذاته . كذلك الاصل في النشاط الدبلوماسي أن يكون مساندآ، وتابعا، لاساليب الصراع العنيفة.

وهو على هذا الوجه لازم لزوم البندقية ذاتها حتى لو وصل الى حد الجلوس في المؤتمرات فمن قبل استطاعت الثورة الفيتنامية المسلحة ان تكسب على كل مستوى دبلوماسي وان تجلس في مؤتمر في باريس اشهرا طويلة، ولكنها في كل حركة، وفي كل كلمة، وفي كل اجتماع ، كانت تساند القتال المسلح وتستند اليه، وتضع الدبلوماسية في خدمة محركة التحرير . اما عندما تصبح الدبلوماسية مطروحة كبديل – ولو وقتي - عن القتال فان عنصر" مواصلة الاشتباك مع العدو" يتعرض الى مخاطر جسيمة ليس اخطر هذه المخاطر التبرع للعدو بهدنة يلتقط فيها انفاسه ويعبىء فيها قواه بل اخطرها القذف بالمقاتلين انفسهم الى مياه البطالة الاسنة وتعريضهم لمرض الملل والركود الذي يسحق قواهم المعنوية ثم تجهيز الشعب نفسه إقتصاديا واجتماعيا ونفسيا للاستسلام عن طريق استمراء حياة السلم والحقوق ما تزال مغتصبة...

كيف يمكن حل كل تلك المشكلات المعقدة ؟ .. السلام عن طريق الحرب . التمكن من الاعداد للحرب بدون إعطاء فرصة للعدو للاعداد لها . الاستمرار في الدبلوماسية على الا تؤدي الى الاستسلام؟ يتم كل هذا بمواصلة الاشتباك مع العدو . ان هذه قواعد عامة ، مصدرها خبرة المنتصرين في معارك التحرر . ثم تعطينا معركة تحرير فلسطين مبررا جديدا، واصيلا يكاد يمزج بين الحق نفسه وبين مواصلة الاشتباك مع العدو، ويجعل فض الاشتباك مع العدو يكاد يمتزج بالتفريط في الحق . اذن ما الذي تريده الصهيونية؟ اعني ما هو الهدف الاساسي الذي من اجله

تكونت الحركة الصهيونية؟ انه كلام معاد ومع ذلك فلا بأس في أن نعيده لأن الاجابة الصحيحة على هذا السؤال يجب أن تظل حاضرة دائماً في وعي الشعب العربي وقواه الجماهيرية المقاتلة ، حتى لا تتوه تلك الجماهير في متاهات التكتيكات المرحلية عن هدفها الأصيل . إذ أنه وراء كل المواقف المرحلية والتكتيكية والمناورات السياسية والتنظيمات الفدائية يبقى الهدف الأساسي لمعركة التحرير العربي هو هزيمة الصهيونية في هدفها الاساسي أيضاً .

لم يكن هدف الصهيونية الاساسي تجميع اليهود وتدريبهم وتسليحهم ونقلهم إلى الأرض العربية . هذه خطوة على طريق الهدف الأساسي . وليس هدف الحركة الصهيونية الاساسي هو إقامة دولة على الأرض العربية تحمل إسم إسرائيل وتحيي أحلامهم الميتافيزيقية . هذه خطوة إلى الهدف الأساسي . وليس هدف الحركة الصهيونية تحطيم الجيوش العربية وهزيمتها لمجرد أن تثبت اسطورة التفوق لشعب الله المختار . هذه ايضاً خطوة على طريق الهدف الأساسي يتبقى الهدف الأساسي وراء كل هذا هو ان" يعيش الصهاينة على الارض العربية حياة آمنة ومستقرة تسمح لهم بأن يتفاعلوا مع الارض وان يحققوا الرخاء والمتعة للذين جمعوهم من أطراف الأرض .

والافكار الصهيونية التي تطرح حركتها كحركة قومية ، وتطرح اليهود كأمة، تعلم علم اليقين بأن الوجود القومي لأي شعب لا يتم بمجرد تواجده على قطعة جغرافية بل يتم بتفاعله الحر مع تلك الارض وبناء حضارة قومية خاصة عليها. من أجل هذا، تقاتل الصهيونية بكل ما تملك من قوة دولتها، لتنتزع من العرب اعترافا ، بوجود اسرا ئيل على الأرض العربية. وهو اعتراف لا يغني عنه اعتراف الدول الاخرى ، لأن الاعتراف في حد ذاته ليس الهدف الاساسي . انما الهدف الاساسي الامن والا ستقرار للحياة في الارض المحتلة، وهذا لا يوفره لإسرائيل الا اعتراف عربي . لهذا أيضا تربط اسرائيل ربطا حتمياً بين الاعتراف والحدود الآمنة. وتستغني عن انهاء الحرب باقامة العلاقات الدبلوماسية أو الاقتصادية أو الثقافية، أي باتاحة فرصة الحياة الآمنة عمليا حتى لو بقيت الحرب معلنة شكليا . الاستقرار على الارض والامن فيها ، هذا هو ما تريده الصهيونية. ولا تأتي كل الوان الصراع وأساليبه الا كخطوات على الطريق الى هذه الغاية الحياتية. وليس العرب أعداء أي طموح بشري الى الاستقرار والأمن . ولكن الذي يعادونه وينكرونه ويناضلون ضده هو أن تختار "زمرة" من البشر تحقيق أمنها على حساب أمنهم .
تحقيق حياتها المستقرة على حساب إستقرار حياتهم بأن تنتزع لها أرضاً من أرضهم . تلك هي القضية في جوهرها وهي لا تحتمل إلا حلاً وا حداً : استرداد الأرض لأصحابها. من أجل أن تسترد الارض المغتصبة يتعين على العرب أن يثبتوا للصهاينة خاصة أن مشروعهم العدواني مشروع فاشل ، ويكون فاشلاً حتى في وعي الصهاينة أنفسهم عندما يثبت لهم بالممارسة العربية انهم لن

يستطيعوا، مهما طال الزمن، ومهما كانت الظروف المحلية أو القومية أو الدولية، ان يعيشوا على الارض العربية عيشة مستقرة آمنة، وهكذا تتحدد خصائص معركة التحرر العربي تحديدا يناسب خصائص معركة العدوان على الارض العربية. ويبرز، أكثر من أية تجربة تحريرية في العالم عنصر" مواصلة الاشتباك مع العدو". إن المواصلة هنا تحقق هدفأ لا يقل أهمية عن هدف الاشتباك ذاته. المواصلة تعني تحريم الامن والاستقرار على العدو" في كل زمان ومكان وبكل أسلوب وتحت كل الظروف، بصرف النظر عن حجم أو نوع الخسائر المادية أو البشرية التي تصيب العدو . من هنا تكون مواصلة الاشتباك مع العدو في كل وقت وزمان وبكل أسلوب هى الخط الاساسى للنضال العربي الذي يجب أن يبقى متصلاً مهما كانت الظروف الدولية التي تحكم عناصر الصراع الأخرى . ويصبح متعيناً على كل عربي ، أياً كان موقعه ، أن يدخل هذا الاشتباك في حياته اليومية وأن يمارسه بنفس الاطراد والاصرار والاستمرار" والسهولة" أيضاً التي يمارس به الاستيقاظ من النوم كل صباح . أعني أن أن يصبح الاشتباك مع العدو ويقصد تحريم الأمن والاستقرار عليه" عادة عربية" عادة على المستوى الجماعي وعادة على المستوى الفردي .

كيف؟ لنأخذ الاشتباك مع" الدولة" الاسرائيلية مثلاً. ان دولة اسرائيل مثل كل الدول مؤسسة ذات وظيفتين فهي جهاز ردع . وهي جهاز إدارة . من حيث هي جهاز ردع تملك أدوات الردع الخارجي من القوات المسلحة و قوات التجسس والتخريب كما تملك ادوات الردع الداخلي من شرطة وحراس ومحاكم وسجون ومشانق..الخ الاجهزة الاولى لتحقيق الاستقرار على الأرض والاجهزة الثانية لتحقيق الامن داخل الأرض . لهذا كان طبيعياً أن تجذب الدولة كمؤسسة ردع داخلي وخارجي ضربات المقاومة الجماهيرية، التي كادت ان تكون قوى مقابلة . ففي مواجهة القوة المسلحة المدربة على القتال تملك قوات مسلحة ومدربة على القتال . وتأخذ المقاومة شكل هجمات صدامية بين قوى التحرير وقوى العدوان، تستعمل فيها انواع الاسلحة التي تستعمل عادة في الحروب. وفي مواجهة قوى الامن الداخلي تملك المقاومة قوى فدائية تتسلل الى الارض من خارجها او تثبت على الأرض المحتلة من الداخل وتختار صراعها مع العدو و قوى أمنه الداخلي بالاساليب التي تدخل في صلاحيات تلك القوى . التفجير والتدمير والقتل ومحاولات إرغامه على أن يبلغ احكامه التعسفية ويطلق سراح المعتقلين ... الخ . حتى تلك العمليات التي كانت في ظاهرها بعيدة عن المواجهة المباشرة بين قوى الأمن الصهيوني وقوى الفدائيين العرب كخطف الطائرات والقبض على أفراد العصابات الصهيونية في الخارج ما لبثت بشكل نمطي أن كشفت عن الدائرة التي تتم في نطاقها فهي أيضاً موجهة إلى قوى الأمن الصهيوني . فقد أتخذت كل الرهائن من الطائرات والبشر وسائل ضغط للافراج عن المسجونين . ان كل هذا لازم وضروري .

كما أن تصعيده لازم وضروري ولكنه بمفرده لا يحقق عنصر مواصلة الاشتباك مع العدو على الوجه الممكن فعلياً . فمن ناحية لا تستطيع المقاومة الجماهيرية أن توظف في هذا النوع من

الاشتباك إلا جزءاً قليلاً من قواها البشرية والمادية وبالتالي تبقى الجماهير العربية العريضة خارج نطاق معركة الاشتباك ومن ناحية أخرى لا يستطيع هذا النوع من الاشتباك ان ينال من أمن العدو واستقراره الا قدرا محدودا اقل مما هو ممكن فعلياً فتبقى الدولة الصهيونية قائمة بوظائفها. وربما كان من شأن الاقتصار على هذا النوع من الاشتباك المحدود هجوما ودفاعا ان يوفر لدولة اسرائيل من حيث هي مؤسسة ردع فرصة احكام قبضتها على الصهاينة داخلها والزامهم نوعا من الانضباط والطاعة لأنها تحمي امنهم واستقرارهم ولتتوافر لها كامل الكفاءة لاداء تلك الحماية . كيف يمكن اذن تحريم الامن والاستقرار بالاضافة الى وبشكل أكثر تأثيراً من الصدام العنيف المسلح .

بأن نتذكر ان اسرائيل" الدولة" ليست مؤسسة ردع فقط بل مؤسسة ادارة . على هذا الوجه الاخير تقوم الدولة على مجموعة كثيفة من القوانين المدنية والجزائية واللوائح التنظيمية والأوامر الادارية والتعليمات والخطط الاقتصادية والمشروعات الاجتماعية والتعليمية والترفيهية... كل هذه القوانين واللوائح التي تحدد في النهاية شكل الحياة ومجالها على الارض المحتلة . وفي نطاقها ينام الصهاينة ويحلمون ويستيقظون ويعملون للمستقبل الذي لا يستحقونه - ويتسع هذا المجال المتنوع لنشاط الدولة كجهاز اداري لكل ا ساليب المقاومة وهي مقاومة سهلة الاداء وسهلة المخاطر . وهي مقاومة قد لا تحتاج الى عنف ولا تعرّض صاحبها الى عنف ، وهي مقاومة يستطيع الأفراد أن يمارسوها يومياً وكأفراد بدون حاجة الى تخطيط وإعداد وتنظيم ذلك أن غايتها إفشال" الدولة" من حيث هي جهاز إدارة . وعلى الذين قد لا يهتدون الى تفاصيل الأسلوب أن يتذكروا كيف ولماذا تثور الشعوب على دولها فتسقطها . يوم ان لا يأمن الفرد ان تستمر الاضاءة لأن" كابل" قد قطع ولا يأمن ان يغتسل لان ماسورة مياه قد انفجرت ولا يأمن أن يصل الى موقع عمله لان دواليب المواصلات قد اتلفت ولا يأمن أن يعتذر لأن" الهاتف" ولا يأمن أن يأكل لأن الخبز محشو بأشياء غريبة ولا يأمن على المواد الغذائية لأنها من حين إلى آخر تنقطع إما لاتلاف تنقطع المحصول او لاتلاف المواصلات أو لاتلافها هي ولا يأمن العلاج لان بعض الادوية مغشوشة ولا يأمن التعامل لأن بعض اوراق النقد مزورة، ولا يأمن السير في الطريق لأن سيارات هوجاء تصدمه، ولا يأمن نظام المرور لان الناس لا يحافظون على نظامه ، ولا يأمن قضاء سهرة لان أشخاصا يتضاربون دائماً فيفسدون السهرات ، ولا يأمن الخدمات لان الضرائب لاتدفع ، ولا يأمن العدالة لان الاحكام لا تنفذ، ولا يأمن صحة المعلومات لأن الصدق محرم عليه... يوم ان تصبح" الحياة" العادية اليومية لاتطاق لأن ملايين التصرفات الصغيرة المحدودة ولكن المستمرة تجعل الحياة لاتطاق ...

يوم ان يتم كل هذا لا تغني الدولة لا قواتها المسلحة ولا قوات امنها . تنهار الدولة من الداخل لانها فاشلة . فاذا اضيف الى هذا ان ادارة الدولة للاقتصاد فاشلة فقطع الغيار غير متوافرة

والمصانع تتوقف يوميا أو من يوم إلى يوم ولو عشر دقائق ، حرائق صغيرة تشب من حين إلى حين حتى في النفايات المتروكة، والبضائع المعدة للتصدير لا تكون مطابقة للمواصفات ، وخطابات البريد - التي توضع باليد في صناديقها لاتصل إلى أصحابها كأن أشباحاً تفرغها ، وتعبئة البضائع رديئة ، وما يكتب في ورقة يكتب في عشر ورقات ، وحتى ساعات ضبط الوقت لا تنتظم ، والبرقيات لا تكون واضحة والاتصالات اللاسلكية لا تسمع جيداً .. وحوادث عجيبة تحدث في الموانيء في جميع أنحاء العالم فتعطل إبحار البواخر في المواعيد المحددة ، وتعطل الطائرات عن الوصول في المواعيد المحددة ... إلى آخر ألف مليون مهمة لا يدخل في أكثرها أي نوع من أنواع العنف ولا تتطلب أسلحة أو تنظيمات ولكنها كلها ترشح أي دولة للانهيار ولا تعوضها أية تعبئة معنوية أو فكرية.. وهذا هو المجال المفتوح للجماهير العربية في الارض المحتلة. لوكا نوا يستمعون إليّ هناك، لقلت لهم، ان الدولة كجهاز اداري عبارة عن مجموعة من الاوامر والنواهي تجدونها في القوانين واللوائح . وعلى كل عربي ان يخرق كل يوم أمرا أو اكثر من أمر. ان يفعل شيئا ممنوعا أو اكثر من شيء ممنوع . وستكون هذه هي" العادة" الفردية اليومية . لا يهم مضمون الامر والنهي . المهم اضعاف بناء الدولة بتخريبه كل يوم . بانتزاع لبنة من لبناته بكل يوم . يتحرم الامن والاستقرار اليومي على الصهاينة في الارض المحتلة. وليفعل كل واحد - يوميا وباستمرار - ما يستطيع . أما على المستوى الدولي، فان دولة اسرائيل متواجدة كجهاز ادارة معاملات مالية وا قتصادية وثقافية مع الدول الاخرى . واما على مستوى الوطن العربي فان الدول المتحالفة مع اسرائيل ذات وجود اقتصادي واجتماعي وثقافي وبشري أيضا. والساحة مليئة بملايين ملايين مجالات الاشتباك مع العدو وحلفائه بأساليب قد تبدو صغيرة ولكن مواصلتها يحولها الى خطيرة . قد تبين عابرة ولكن مواصلتها يحولها الى قاهرة .

وتبدو هينة ولكن مواصلتها تحولها الى مميتة وقاتلة. قد لا تبدو ضربة قاضية للعدو ولكنها استنزاف لقواه.. وهي بعد الاقوى أثرا في جر الصهاينة المقيمين على الارض الى دائرة الصراع ومخاطرها بدلا من تركهم يجتمعون وراء دولتهم من حيث هي جهاز ردع . وهكذا تنهش الجماهير العربية الجسد المزروع الغريب في أرضها، وتحرم عليه الامن والاستقرار الذي يحلم به على هذه الارض . ويفلت النضال العربي من مأزق الحصر التقليدي الذي علق معركة التحرر دهرا على الجيوش النظامية للدول العربية ، ويكاد يعلقها الان على نفر من الفدائيين، ثم تبقى الجماهير العادية البسيطة بعيدة عن المعركة، مع أن مواصلة الاشتباك مع العدو لا تتحقق تحقيقا كاملا الا من خلال دخول الجماهير العادية البسيطة خضم المعركة بالاسلوب المناسب . وما يزال باب الاجتهاد في الاسلوب مفتوحا. انما نحاول من خلال الأمثلة أن نؤكد خطأً لا يجوز أن ينقطع أو يتوقف أبدا، في أي زمان وفي أي مكان وبأي أسلوب هو: مواصلة الاشتباك مع العدو

ماالصهيونية :

فى البدء كانت الصهيونية نظرية ، اصبحت استراتيجية بالعناصر الثلاثة لكل استراتيجية : التنظيم . الخطة. الهدف. ثم اصبحت الصهيونية مواقف وحركة ومعارك تكتيكية . ولايعنى قولنا ان الصهيونية كانت ثم اصبحت انها انتقلت من مرحلة انقضت الى مرحلة جديدة ، بل يعنى انهاا قد تمت واضيف الى مضمونها ا لفكرى مضمون استراتيجى ثم مضامين تكتيكية . فهى نظرية على المستو ى الفكرى. وهى تنظيم ذو خطط واهداف محددة على المستوى الاستراتيجى وهى حركة جزئية او مرحلية . فكرية او عملية ، فردية او جماعية ، علىا لمستوى التكتيكى ، وكلها صهيونية .

يكون من المفيد لنا ، نحن العرب، حين نتحدث عن الصهيونية او نستمع الى حديث عنها ، حين تواجهنا او نواجهها، ان نعرف ونحدد المستوى الصهيونى الذى يدور عليه الحديث او تجرى عليه المواجهة . قلت مفيدا ، واقول انه حيوى . اعنى ان هذه المعرفة بمستويات الصهيونية، والاستفادة بها مسالة حياة اوموت بالنسبة الينا نحن العرب . بحيث ا ن أى خلط او خطأ ، أى جهل او تجاهل ، لمستويات الصهيونية قد يؤدى – فى صراعنا معه – الى هزيمتنا هزيمة لانعرف كيف وقعت . وافدح الهزائم واكثرها تدميرا هى التى لايعرف المهزوم كيف وقعت .

ترجع هذه الحيوية الى سببين متكاملين :

السبب الاول: ان مستويات الصهيونية ، مثل مستويات اية حركة سياسية يحكم بعضها بعضا ويحدده .فالنظرية هىالمبدأ والمقياس الثابت. فهى تحكم الاستراتيجية وتحددها . بمعنى ان الاستراتيجية ، مهما تعدلت خططها ، او حتى تغيرت ، لاتستطيع ان تفلت من اطار النظرية . وستبقى غايتها دائما تحقيق الهدف الذى حددته تلك النظرية . ثم ان المواقف الفكرية او الحركية ، الجزئية أو المرحلية ، الفردية او الجماعية ، السلمية او العنيفة ، التى تقع على مستوى التكتيك تكون محكومة بالاستراتيجية طبقا لهذا يكون من الحيوى بالنسبة الينا ، حين نتحدث عن الصهيونية او حين نواجهها ، ان نميز بين تلك المستويات الثلاثة ،ثم نتعرف اين يقع الحديث او

المواجهة منها . ثم ان نكتشف ، بالرغم من كل تمويه ، حقيقة الموقف التكتيكى برده الى الخطة الاستراتيجية لنعرف على أى وجه يخدمها . ثم نراقب الاستراتيجية وننتبه الى ماقد يصيبها من تغيرات لابد لها من ان تكون اكثر ملاءمة عند اصحابها ، لتحقيق الهدف . فاذا غم علينا الامر رددناه الى النظرية .. اذ هى المصدر الاول لكل حركة والمقياس الاخير لكل موقف .

السبب الثانى : ان مستويات الصهيونية ، مثل مستويات اية حركة سياسية اخرى ، تتراكم وتتراكم متجهة .من الفكر المجرد الى الواقع العينى . من النظرية الى الاستراتيجية الى التكتيك حيث تدور المعارك الفعلية متنوعة المضمون متنوعة القوى متنوعة الاسلحة . ولكن خط ، الانتصار او الهزيمة يتجه — بالعكس — من الواقع العينى الى الفكر المجرد . يتم النصر او الهزيمة على المستوى التكتيكى ، وبتراكمه تهزم الاستراتيجية او تنتصر ، ولكن النصر النهائى، او الهزيمة ، لاتتم الا بهزيمة النظرية ذاتها ، أى حين لا تجد احدا يقتنع بها وينطلق منها الى استراتيجية جديدة ، او بانتصار النظرية ذاتها حين يتمكن الطرف المنتصر تكتيكياواستراتيجيا من صياغة الواقع طبقا لنظريته . وبناء على هذا يكون من الاخطاء القاتلة لاى طرف ان يحسب النصر التكتيكى نصرا استراتيجيا او يحسب النصر الا ستراتيجى حسما نهائيا للنزاع . وبالعكس ان يعتبر الهزيمة التكتيكية هزيمة استراتيجية او يعتبر الهزيمة الا ستراتيجية حسما نهائيا للصراع .

فى عام 1967ادرك جمال عبد الناصر مستوى الهزيمة بالرغم من جسامتها ، وقدم مثالا رائعا للقائد الذى يعرف طبيعة المعارك التى يخوضها ، فبعد شهرين فقط من الهزيمة الجسيمة رفع شعار " ماأخذ بالقوة لايسترد الا بالقوة" ، وشعار" لامفاوضة ، لاصلح ، لا اعتراف" . وفى العام ذاته سئل وزير خارجية الصهاينة ، ابا ايبان ، عما اذ اكانت الصهيونية ستفعل لو نجح العرب فى تدمير اسرائيل فقال: كنا سنبدأ من جديد لاقامة دولة اسرائيل . وكان كلاهما يعبران عن السمةالتكتيكية للنصر الصهيونى والهزيمة العربية عام 1967 .

الصهيونية نظرية :

الصهيونية نظرية فى القومية . تقول : ان اليهود امة . ولابد ان ننتبه الى هذا المفهوم الصهيونى للامة العربية ، اولا: لان معرفته معرفة واضحة هى الضابط النهائى للمواقف الصحيحة من الصراع العربى الصهيونى . وثانيا : لان مشكلة الامة والقومية مشكلة قائمة فى الوطن العربى على المستويين الفكرى والحركى . أى اننا — على وجه — نستعمل فى حديثنا عن الامة العربية ومستقبلها ذات الالفاظ التى يستعملها الصهاينة عن الامة اليهودية ومستقبلها . وقد يؤدى هذا الى

ان تختلط فى اذهاننا المفاهيم فنتصور ان لنا ولهم نظرية واحدة فى الامة القومية .
اليهودية دين كما نعلم . واليهود هم ممن يؤمنون بذلك الدين ، ولما كان الايمان بالدين ، أى دين، لايتوقف على الجنس او اللون او اللغة اوالانتماء الاجتماعى ، فهو انتماء مفتوح لكل من يؤمن ، فاننا نستطيع ان نتبين بسهولة ان اليهود ، لمجرد انهم يهود، لايكونون امة . والواقع انه لاتوجد فى التراث العالمى كله ، على كثرة مافيه من نظريات فى الامة والقو مية ، نظرية تقول ان اليهود امة الا النظرية الصهيونية .فالامة فى الصهيونية لاتحتاج فى تكوينها لتاريخى الى وحدة الدم او الجنس او اللغة او الارض او الحياة الاقتصادية .. بل يكفى لتكوين الامة الانتماء الدينى ومايولده من قرابة روحية تميز بين اليهود وغيرهم من الامم .

وتختلف هذه النظرية اختلافا اساسيا عن مفهوم الامة والقومية فى الفكر العربى الحديث . حيث الامة" مجتمع ذو حضارة متميزة من شعب معين مستقر على ارض معينة خاصة ومشتركة تكون نتيجة تطور تاريخى مشترك". ويدخل فى هذا التعريف كل ماتعلمناه من مميزات الامة كاللغة او الثقافة او الدين فتلك عناصر التكوين الحضارى وهى تختلف من امة الى امة تبعا لظروف لتطور التاريخى الذى كونها . اما عن المصالح الاقتصادية المشتركة فهى متوافرة فى كل مجتمع حتى لو لم يكن امة . واما الحالة النفسية المشتركة والولاء المشترك .. الخ . فتلك معبرات فى الافراد عن وعيهم الانتماء الى ا مة قائمة ، ولكن الوجود القومى ، الامة ، لايتوقف عليها على اى حال فان الفارق الاساسى بين النظرية الصهيونية والنظرية العربية فى الامة هو الاختصاص بالارض والتفاعل معها حضاريا .

الصهيونية استراتيجية :

للاستراتيجية عناصر ثلاثة : الاداة . الخطة . الهدف .

(1)اما الاداة الصهيونية ، فهى المنظمة الصهيونية ، وليس مؤسستها السياسية المسماة اسرائيل ، كما قد يتبادر الى الذهن . الصهيونية منظمة هى التى جمعت الصهاينة وحشدت جهودهم من اجل هدفها . وهى التى بدات بالغزو السلمى قبل 1948 لارض فلسطين فى شكل الهجرة وشراء الاراضى ، وهى التى عبأت ودربت وسلحت قواها استعدا دا للغزو المسلح . وهى التى غزت ثم

اقامت دولة اسرئيل على قطعة محدودة من الارض العربية . وهى التى تقف وراء اسرئيل وتستخدمها كقاعدةانطلاق الى اسرئيل الكبرى التى تمثل الهدف النهائى .
اوينبغى ان ندرك ، ان القول الفصل فى مصير الصراع العربى الصهيونى ليس ما تقوله و تفعله او تقبله اسرئيل القائمة بل ماتقوله او تفعله او تقبله الصهيونية المنظمة على المستوى العا لمى . والواقع ان اسرئيل ليست الا المشروع المصغر للهدف الصهيونى . وهى لاتمثل من بين ادوات الغزو الصهيونى اخطرها واقواها تاثيرا فيجاورها ووراءها واقوى منها اثرا تلك القوى العالمية التى عبأتها الصهيونية المنظمة من دول وجماعات وافراد وافكار واموال وأعلام لتدعم قوة اسرائيل ثم تمد لها الارض العربية حتى تتقدم عليها باقل خسائر ممكنة ..وقد تجنح حكومة فىاسرائيل الى السلام وقد تقبل التخلى عن التوسع ولكن هذ ا لن يكون عند المنظمة الصهيونية الا استسلاما او خيانة من حكام الدولة القاعدة ولن تلبث الصهيونية ان تغير من تشكيل الحكم فى دولتها الصغرى لتستانف مسيرتها الى دولتها الكبر ى .

(2)اما الخطة الاستراتيجية الصهيونية فتتميز اساسا بانها عدوانية . ذلك ، لانها ، بحكم الفرق بين منشأ القوة وهدفها ، لابد ان تكون هجومية . وقد تقف اسرائيل موقفا دفاعيا . وقد تتقهقرولكن هذا لن يكون الا موقفا تكتيكيا فى معركة تكتيكية فى نطاق استراتيجية هجومية عدوانية اصلا . وهو مايعنى تماما انه بعد أى توقف او تقهقر لايملك الصهاينة ، واداتهم اسرائيل ، الا ان يعودوا الى الهجوم الى ان يتحقق هدفهم الاستراتيجى او الى ان تهزم الصهيونية نهائيا . فهى اذن استراتيجية هجومية عدوانية ، هجومية منسوبة الى الصهاينة . عدوانية منسوبة الينا نحن العرب .

(3)اما الهدف ، فقد حددته النظرية على وجه لايستطيع أى صهيونى ان يحيد عنه او يتوقف دونه ويبقى صهيونيا . وتمكن صياغته على الوجه الاتى: مادام اليهود ا مة فان من حقهم ان يفعلوا ماتفعل كل الامم ، وان يعاملوا كما تعامل الامم . ومن حق الامم ان تقرر مصيرها بنفسها مستقلة عن اية امم او شعوب اخرى . وهو مايعنى ان تكون لها دولتها القومية . والدولة لاتقوم الا من شعب معين على ارض معينة . اما الشعب فهو كل اليهود ايا كانوا من اطراف الارض. عليهم ان يجتمعوا على ارض دولتهم . اما عن الارض المعينة ، فهم يقراون فى كتاب يسمونه التوراة ، وهو كتاب ظهر لاول مرة فى عهد الملك يوشا بعد وفاة موسى بن عمران بسبعة قرون كاملة (سفر الملوك الثانى ــ اصحاح 22) . يقراون " لنسلك اعطى هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات" (سفر التكوين اصحاح 15 اية 18). الا انها ارضهم تاريخيا ؟ .. لا. يقراون وعد" يهوة" لاسرائيل بان سيقوده" الى مدن عظيمة لم تبنها ، وبيوت مملءة كل خير

لم تملأها ، وابار محفورة لم تحفرها ، وكروم زيتون لم تغرسها"(سفر التثنية ــ اصحاح 6 ــ اية 11 . (وماذا عن سكانها واصحابها ؟.. يقراون :" انى ادفع الى ايديكم سكان الارض فتطردهم من امامك" (سفر الخروج اصحاح 23 اية 22 . (

وهكذا نعرف مايعرفه الصهيونيون ، وهو ان هدفهم الاستراتيجى الاستيلاء على ارض عربية تمتد من نهر النيل الى نهر الفرات ،واخلاؤها من سكانها ليقيم فيها يهود العالم كله دولتهم القومية .

الصهيونية تكتيكا :

لايمكن حصر المواقف والاساليب والمراحل التكتيكية التى تترجم الخطط الاستراتيجية . ذلك لانه على المستوى التكتيكى تدور المعارك الفعلية ويلتحم المتصارعون وتتعدد الاطراف المشتركة بحيث لايستطيع أى طرف ان ينفرد باتخاذ موقف تكتيكى غير متاثر بالموقف المضاد ، ولا ان يستعمل سلاحا بعيدا عن قياس مضائه على مضاء الاسلحة التى يواجهها . باختصار يمثل المستوى التكتيكى الميدان المرن للمناورة فيه تتجلى كفاءة المقاتلين والقادة ، لا فى ميدان القتال فقط ، ولكن فى المقدرة على مواجهة المواقف الطارئة . والملاءمة بين حركاتهم وحركات القوى المضادة .. وتتوقف تلك المقدرة الى حد كبير على الادراك الثابت للتناقض بين الخطط الاستراتيجية للمتصارعين حتى يستطيع كل مقاتل او مشترك فى الصراع ان يطور من اساليبه التكتيكية باقصى قدر من المرونة ، ولكن بحيث لاتنتقل اساليبه من مجال خدمة استراتيجيته الى مجال خدمة استراتيجية العدو . فيكون قد هزم نفسه .

ومع ذلك فلا باس من ان نقول ان حكماء صهيون قد اطلقوا حركة الصهيونية من اية قيود انسانية او خلقية من اول القتل الى الكذب وقالوا يوصون ابناء صهيون": اضربوهم وهم يضحكون ، اسرقوهم وهم لاهون ، قيدوا ارجلهم وانتم راكعون ، ادخلوا بيوتهم واهدموها ،تسللوا الى قلوبهم ومزقوها ."

الهزيمة والاستسلام :

طبقا للمقاييس التى ذكرناها تحقق الصهيونية هدفها باحدى طريقتين هزيمة العرب او استسلامهم

.اما بالاستيلاء على الارض العربية عنوة واخلائها من البشر واقامة دولة اسرائيل عليها ، واما تخلى العرب عن الارض وتركتها لهم خالية ليقيموا عليها دولتهم . ولانقصد من قولنا خالية الايوجد فيها عربى على الاطلاق ولكن نقصد ان لايقيم فيها الا العربى الذى تقبل اسرائيل اقامته . ذلك لانه لايخفى ان دولة اسرائيل ستكون فى حاجة الى بشر من الدرجة الثالثة يعفون ابناءها من عبء العمل المرهق او العمل القذر وكمذيعين على موجات البث باللغة العربية ، وجواسيس ايضا .

المهم انه نتيجة الخلط المضطرب فى المفاهيم فى المرحلة الحالية اصبح من اللازم التفرقة بين الهزيمة والاستسلام .

ان الهزيمة هى التخلى عنوة عن هدف تكتيكى او استراتيجى . اما الاستسلام فهو قبول التخلى عن هدف تكتيكى او استراتيجى بدون صراع . وقد يبدو الفارق بينهما دقيقا على المستوى التكتيكى . اذ قد يتم الانسحاب بدون قتال من موقع تكتيكى نتيجة لتقدير القيادة لموازين القوى ، وتجنب خسائر محققة . هذا ليس استسلاما ولكنه مناورة ، واحدة من فنون الصراع التى يجيدها الراسخون فى علم الصراع وفنونه . وقد تكون مناورة الانسحاب ، والتخلى عن الارض ، بل حرقها وتدميرها ، ابرع تكتيك يخدم الهدف الاستراتيجى . كما فعل الروس مرتين امام نابليون وهتلر . وفى صراعنا مع الصهاينة ، اعنى الصراع العسكرى ، هزمنا عام 1948 وعام 1956 وعام 1967 وهزمناهم عام1973 ، وكانت كلها معارك تكتيكية . فى عام 1948و1967 تخلى كثيرون من الشعب العربى فى فلسطين عن الارض وغادروها وكان ذلك يبد واستسلاما، ولكن حين تحول الشعب العربى الفلسطينى خارج الا رض المحتلة الى منظمات مقاتلة وبدا القتال اقتحاما اصبح من الممكن القول بان الهجرة تمثل انسحابا تكتيكيا وليس استسلاما . وحين امر الرئيس عبد الناصر بسحب الجيش المصرى من سيناء عام 1956 حتى لاتطوقه القوات الانجليزية والفرنسية الهابطة خلف منطقة القتال كان انسحابا تكتيكيا وليس استسلاما .. وهكذا .

ولكن الفارق بين الهزيمة والاستسلام يبدو واضحا حين تقع الهزيمة على المستوى التكتيكى فيتم التراجع على المستوى الاستراتيجى ، او حين تقع الهزيمة على المستوى الاستراتيجى فيتم قبول وتبنى نظرية المعتدين . وهو هنا استسلام لانه ليس النتيجة اللازمة للهزيمة . فليس من شان الهزيمة فى المعارك التكتيكية ، اعنى الجزئية او المرحلية ، ان تحسم المعركة على مستواها الاستراتيجى ، وبالتالى يكون التراجع الاستراتيجى غير مبرر ، أى تراجعا بدون صراع أى استسلاما . كما ان الهزيمة حتى على المستوى الاستراتيجى لاتعنى ان الصراع قد حسم وانما

يحسم فقط حين يتبنى المنهزمون نظرية المنتصرين . واروع مثال على كل هذا معارك العرب ضد الغزو الصليبى . انهزم العرب فى اكثر من موقعة تكتيكية ولكنهم لم يسلموا ابدا بحق الصليبيين فى احتلال الارض العربية ، لم يقبلوا ابدا ، ولم يتبنوا النظرية الصليبية ، فلم يلبثوا ، ولو بعد حين ، ان حرروا الارض وهزموا اعداءهم . ومثاله الاخرحركات التحرر الوطنى فى العالم كله . بذرة نموها التى لم يصبها العفن ابدا ، هو رفض النظرية الا ستعمارية ، نظرية تحضير العالم اوروبيا ، نظرية تفوق الرجل الابيض ورسالته الحضارية الى البشر ... ومن هذه البذرة ، وبعد قرون من العجز المادى عن المقاومة ، واتت الظروف فنبتت البذرة ثورات لم تلبث ان انتصرت .

أليس هذا واضحا ؟ .

فما الذى يحدث الان فى العالم العربى ؟ ..

الاستسلام الوشيك :

هزمتنا الصهيونية عام **1948** واحتلت جزءا من فلسطين . وهزمتنا عام **1956** وخرجت من المعركة مستولية على مياهنا الاقليمية فى خليج العقبة . وهزمتنا عام **1967** واستولت على سيناء والضفة الغربية والمرتفعات السورية .وفى مقابل هذا كنا ندرك ان تلك هزائم تكتيكية ونعد العدة لاستئناف المعارك . تحول شباب اللاجئين الى مقاتلين واقتحموا حدود وطنهم . وتقدم العرب الى القائد الذى انهزم يعوضونه ماليا عن دخل القناة ، ويتعاهدون معه على" الا مفاوضة ولاصلح ولااعتراف". ومن مرحلة الاعتراف بالحطأ بدأت خطى التصحيح . وعبأت اكثر من دولة عربية كل قواها المادية والبشرية لاعادة انشاء الجيوش التى سحقتها الهزيمة ، واستؤنف القتال تحت اسم حرب الاستنزاف بعد اقل من ستة اشهر من الهزيمة علاقاتها الدولية على اساس ان ماأخذ بالقوة لايسترد الا بالقوة . وحين وجد القادة لم يخذلهم الشعب وجاءت لحظة الاختبار التاريخى حين واجه جنودنا جنود الصهاينة فى فرصة متكافئة وانهزم الصهاينة فى معركة تكتيكية ايضا .. ولكنها امدتنا باقوى اسلحة النصر النهائى : الثقة فى اننا نستطيع ان ننتصر .

بكل منطق قومى او وطنى او علمى او حتى نفسى .. كان ذلك يعنى اولا : ان يدرك العرب ان نصر اكتوبر **1973** كان نصرا فى موقعة تكتيكية ، لم يحسم الصراع بين العرب والصهيونية على المستوى الاستراتيجى .ولكنه مهد لحسمه لصالح العرب . ثانيا : الايتركوا للعدو فرصة التقاط

انفاسه وا سترداد قواه والتحول من الدفاع الى الهجوم . ثالثا : ان يحتفظ القادة بالثقة بالنصر التى قدمها اليهم الجنود بعد ان اشتروها بدمائهم الغالية . رابعا : ان يكمل العرب ماينقصهم من عناصر القوة فيضيفوا الى خططهم التكتيكية الجزئية المرحلية خطة استراتيجية شاملة بعيدة الامد ..
خامسا: ان يكتشف العرب من خلال عناصر النصر الذى تحقق فى اكتوبر **1973** اصوله المبدئية ، ان يكتشفوا من خلال ماحقق عنصر التنسيق العربى من نصر مدى ماتتضمنه الوحدة من انتصار ، ومدى مسئولية التجزئة عن مرحلة الهزائم .

بكل منطق كان يجب ان نوالى انتصاراتنا العربية التكتيكية ، لتحقيق النصر على المستوى الاستراتيجى ، لنصوغ الحياة على الارض العربية طبقا لنظريتنا القومية ، ونقنع الصهاينة بها ليبحث كل منهم عن ارضه التى جاء منها .

ضد كل هذا ،

ضد معطياته العينية ، لمادية والبشرية والفكرية ، حدث مالم يحدث فى تاريخ الشعوب كلها بقدر ماعرف من تاريخ الشعوب . وفى ذات للحظة التى انتصرنا فيها فى معركة تكتيكية استسلمنا اونحن على وشك الاستسلام ، لا اقول على المستوى الاستراتيجى ، بل اقول على المستوى المبدئى . كان امامنا خيارات عدة تقع جميعها على مستوى المعركة التى انتصرنا فيها . كان ممكنا ان نواصل المعارك . كان فى امكاننا ان نتوقف مرحليا . كان فى مقدورنا حتى ان نتخلى عن المكاسب التى حققناها ، وهو اقصى ، واقسى ، مايمكن ان يختاره المقا تلون على ا لمستوى التكتيكى . وكان يمكن ان يكون لكل هذا مبررات ، من الظروف الدولية ، او من الظروف العربية ، او من الظروف المحلية ، سواء كانت ظروفا سياسية او اقتصادية او حتى ذاتية ، وسواء كانت ظروفا صحيحة او غير صحيحة .. وكنا ستلف فى هذه المبررات ، ولكن خلافاتنا ماكان لها ان تتجاوزمستواها التكتيكى ، أى ان اقصى ماكنا سنختلف فيه هو :" كيف نواصل الصراع حتى نهزم الصهيونية على جميع مستوياتها .

ولكن شيئا من هذا لم يحدث ..

الذى حدث اننا بطريقة غريبة على التاريخ ،, غريبة على الشعوب ، غريبة على تاريخ الشعب العربى بالذات ، انتقلنا ، نحن الذين انتقلنا . من نصر تكتيكى الى استسلام مبدئى ، موفرين على

عدونا عناء الصراع على المستوى الاستراتيجى .

ذلك لاننا سلمنا ببساطة بان من حق اليهود ان يقرروا مصيرهم ، أى انهم امة . ,ان من حق هذه الامة ان تكون لها دولة قومية وان تقوم تلك الدولة القومية ، الصهيونية ، على جزء من الارض العربية ، وان يكون هذا الجزء بالذات ماشارت اليه التوراة التى يقراها الصهاينة .لم يحدث ابدا ان ارغمنا الصهاينة على تبنى نظريتهم هذه . لانه لم يحدث ابدا ان هزمونا على المستوى الاستراتيجى ، ولم يحدث ابدا ان حققوا من الانتصارات مايحسم الصراع بالنسبة اليهم على المستوى التكتيكى، وقد كان اخر لقاء بيننا هزيمة لهم .. لهذا قلنا ونقول : اننا لم نهزم .. بل نستسلم او نوشك ان نستسلم ...

السنا مشغولين بوجود الشعب الفلسطينى ودولته ، السنا فرحين بان اعترف عدونا ، او بعض اعداءنا بان هناك شعبا فلسطينيا ، وان من حقه ان يكون له موطنا، وليس حتى وطنا؟ السنا نتحاور ونتشاور ونجادل ونختلف حول صيغة وجود الدولة الفلسطينية ، هل تقوم مستقلة ام فى اتحاد فيدرالى او كونفدرالى مع الاردن اوسورية . السنا نركض فى انحاء الارض جميعا ، فخورين بكرمنا وسماحتنا وسعة افقنا نعرض السلام مع الصهاينة وندفع ثمنه مقدما قبول الوجود الصهيونى على ارض فلسطين ؟ .. السنا نسعى الى حد المذلة ، علنا وخفية ... ، ملتمسين من الصهاينة ان يقبلوا جوارنا مؤكدين صدق نوايانا فى قبول جوارهم ، على الارض العربية .. اليس على الارض العربية فى جنوب لبنان ، جيش مقاتل" صهيونى ــ عربى" موحد الاسلحة والامدادات والتخطيط وقد يكون موحد القيادة ؟.... ايها الشباب الا نسمى الان ، وطننا العربى ، منطقة الشرق الاوسط ؟ ..

فما الذى بقى ؟ ..

يقولون :" انها خاتمة جولة وستاتى بعدها جولات" .. غدا تسترد دولة الضفة والقطاع مابقى من اسرائيل ؟..غدا نقوى فنستانف الصراع ؟ .. غدا .. ياتى جيل يلغى مافعلناه والتاريخ طويل؟ .

لايصدق من هذا القول الا القول الاخير . نعم ، غدا يأتى جيل عربى يلغى كل مافعلوه ، ولماذا غدا، انه قائم قادر لن يولد غدا ، بل سيضرب غدا وان غدا لناظره قريب ، ولكن لماذ ايطول تاريخ

المعاناة ونحن قادرون على اختصاره ..؟ السنا جيلا فاشلا؟.. افلا يكفيه فشله فيخون جيلا ناشئا .

اما عن الجولة التى ستاتى بعدها جولة ، ودولة الضفة والقطاع التى ستحرر باقى فلسطين ، فلا اقول انه عناء . اقول انه احتيال . نصب . خديعة . اننا لم نحرر الضفة او القطاع او حتى جزءا منها ونقيم عليه دولتنا .ولو تم شئ من هذا ولو فى القطا ع وحده ، ولو فى مدينة واحدة من مدن الضفة لكان نصرا عظيما ، ولكننا مشغولون بقبول عرض مشروط .. مشغولون بدراسة صفقة دولة فلسطين فى مقابل دولة صهيونية . مع الاعتراف المتبادل والامن المتبادل .. ولن ينتهى الامر عند هذا الحد.. سيستانف الصهاينة مسيرتهم العدوانية الى ان تتحقق لهم دولتهم بحدودها التى لاينكرونها.. فقط بلاسلوب الجديد .. اسلوب الاستسلام العربى ...

وبعد ،

فلماذا استسلم العرب أويوشكون على الاستسلام ؟ ... اعتقد ان الصهيونية وحلفاءها ، بعد ان انهزموا عسكريا فى جبهة القتال فى اكتوبر1973 ، فتحوا من جباهنا ثغرات ، وغزوا عقولنا . اختصروا الطريق الى النصر النهائى ، فبدلا من احتلال ارضنا جزءا جزءا بدأوا فى احتلال رؤوسنا فكرة فكرة . بدلا من الاستيلاء على الوطن يحاولون الاستيلاء على البشر ليكون الوطن لهم بعد ذلك بدون حاجة الى القهر ..

جردونا من نظريتنا العربية ودسوا فى رؤوسنا نظريتهم الصهيونية .

رفعوا من فكرنا القومية العربية ووضعوا بدلا منها القومية اليهودية ، ولما انمحت من ذاكرتنا دولة الوحدة قامت بدلا منها دولة اسرائيل . وكان لهم منذ البداية حلفاء جاهزون . اولئك هم الاقليميون الذين انكروا امتهم ، فتنكروا لقوميتهم ، فمنحوا ولاءهم للتجزئة فيما بينهم . والتجزئة لاتمس بل تتدعم اذا ماأعطيت الصهيونية جزءا مغتصبا من الوطن العربى مقابل ان تسكت عن اغتصاب الاقليمين باقى اجزائه ..

ولما انكر الاقليميون امتهم ، وفقدوا قوميتهم ، تجردوا من نظريتهم ، فلم يستطيعوا ، وماستطاع الاقليميون قط ، ولن يستطيعوا قط ، ان تكون لهم استراتيجية موحدة فى مواجهة الصهيونية . ماكان ولن يكون للاقليمين اداة نضال عربية واحدة . ماكان ولن يكون للاقليمين خطة مواجهة

واحدة . لم يلتق الاقليميون ولن يلتقوا قط على تحرير فلسطين .... وليس هذا قولا جديدا .

فى شباط (فبراير 1968 (كتبت ونشرت تحت عنوان" وحدة القوى العربية التقدمية" حديثا طويلا عن المستقبل قلت فيه مخاطبا المقاومة الفلسطينية وكانت فى ذلك الوقت تحمل مابقى من امل لهذه الامة قلت :"احذروا غدا اوبعد غد ستخذلكم الاقليمية من حولكم والاقليمية من داخلكم" .
وفى نيسان (ابريل) 1970 فى عمان فى ندوة مشتركة بقاعة نقابة المحامين اشترك فيها ممثلون عن اغلب فصائل المقاومة قلت" ان اسرائيل قامت ونمت وتوسعت فى ظل حماية الدول الاقليمية ... "

فمن حقى ان اقول الان: ان الشعب العربى يوشك ان يستسلم بالفعل وفى رعاية القوى الاقليمية دولا واحزابا وجماعات وافرادا .. مالعمل ؟ لاتسألونى فقد لااعرفه . ولو كنت اعرفه فقد اعترفت من قبل اننى غير قادر على الوفاء بمسئولياته فآثرت الصمت ــ مهزوما وليس مستسلما ــ الى ان دعيت الى الحديث اليكم هاأنذا قد تحدثت اليكم هذا الحديث . لايناسبه عنوان" الصهيونية والفكر العربى" بل اولى به عنوان يقول:" الصهيونية فى الفكر العربى" او" الصهيونية فى العقل العربى" . أو . وهذا ماكنت اريده ..." العرب الصهاينة"..

واخيرا فانى اعتذر عما اشرت اليه اكثر من مرة من آراء سبق ان قلتها كأنى أبحث لنفسى عن براءة كاذبة . وعذرى فى هذا اننى احاول ان استرد ثقتى المفقودة بالمستقبل . احاول ان اقول لنفسى اذا كانت رؤيتنا قد صحت من قبل فان الانسحاب صمتا او اعتزالا هو انهزام لاينبغى لقومى ان يقع فيه بينما يوشك الاقليميون ان يجروا الامة كلها الى مواقع الاستسلام ، واننا لعلى قدر من المقدرة فى مواجهة معارك العقول ....ثم اننى اخاطب الجيل العربى الجديد ...
وهو قمين بأن يذكرنى بما كنت اذكره فى مثل سنه ...قولا تعلمته من شاب عربى بدأ نضاله على ضفاف النيل ضد امبراطورية لم يكن يجرؤ احد على تحديها ، وأنشأ حزبه الوطنى الذى تحول الى مدرسة ... فى تلك المدرسة تعلمنا ذلك الدرس الذى كدنا ننساه وها نحن نلتقطه مرة اخرى من عيون الشباب العربى : " لايأس مع الحياة ولاحياة مع اليأس " وهكذا ترون اننى اتحدث اليكم ولكنى أخاطب نفسى وانى لاولى بحديث اليقظة منكم لاننى فى حاجة اليه أكثر.